الأعمال القصصية
الكاملة

الأعمال القصصية الكاملة

حسين نصيب المالكي

اسم الكاتب: حسين نصيب المالكي
اسم الكتاب: الأعمال القصصية الكاملة
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – سبتمبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 /

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع. ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب. أو استنساخها أو نقلها. كليا أو جزئيا. في أي شكل وبأي وسيلة. سواء بطريقة إلكترونية أو آلية. بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي. أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها. دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حسين نصيب المالكي

مقبُولَة

الطبعة الأولى

1979

مجموعة قصص

المقـدّمة

حسين المالكي ومقبولة

القاص/ سعيد خير الله صالح

كانت القراءة الأولى أو الأصح البداية في التعرف على مشوار القصة القصيرة في ليبيا، مع قصة سالمة التي أحبها الخراز الإسكافي في قرية البردي، شرقي مدينة طبرق بحوالي 120 كيلو متر، للكاتب الناشئ حينذاك، والذي أصبح فيما بعد الدكتور/ عبد السلام شلوف، والنهاية فيها كانت مع قصة مقبولة الفتاة التي أحبها الحاج معتوق البقال في الحطية، للكاتب المتواجد في ذاكرة الأدب، في هذه المدينة على الدوام القاص الصحفي حسين نصيب المالكي.

والمسافة بين القصة الأولى التي قرأتها في بداية حياتي، لأول مرة لكاتب ليبي، وأنا أسند ظهري على أحد جدران مدرسة طبرق الثانوية في استراحة الإفطار، وبين هذه القصة الثانية أربعون سنة بالتمام والكمال، بين قصة الفتاة الأولى

سالمة، التي قرأتها في عجالة وهي منشورة في صحيفة بريد برقة في الستينات، وقصة الفتاة الثانية مقبولة في مطبوعة أنيقة، أقلبها بين يدي بصفتها الطفلة البكر المدللة لمدينة طبرق.

وكما قلتُ «**مقبولة**» هي عنوان المجموعة القصصية الأولى للكاتب والقاص/ **حسين نصيب المالكي**، ومقبولة كما قلتُ هي الابنة البكر لجيل الكتاب في مدينة طبرق، حيث قبل هذه المجموعة القصصية، كانت كتابات بعض الموهوبين القلائل لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، وتنشر نادرًا على مراحل متباعدة، في بعض المطبوعات السيارة، حتى أطلت مقبولة، أول مجموعة قصصية طبرقية، لكاتب شاب يمتهن التدريس، والثقافة والعسكرية، واللهاث وراء مهنة المتاعب..

عندما يخرج طالب كاتب من حي الحطية، معنى هذا أنه خرج من ثوب طبرق القديمة، وخرج من بيت الأصالة، أي خرج من دم المجتمع ولحمه، مسلحًا بتجارب إنسانية حقيقية

لأن بيوت الحطية المشيدة بالصفيح المترامية الأطراف، تهمس لبعضها البعض بأسرارها وأوجاعها وأفراحها وأتراحها ومعاناتها وعاداتها وتقاليدها، وشكل نوافذها وطلاء أبوابها، وخشب أسطحها وأراجيح العناكب في زواياها.

معنى هذا أن عدسة وأفكار حسين المالكي التقطت بشغف صورًا حقيقية، صادقة لحياة الناس، وصورت المرأة والرجل والشيخ والطفل والعجائز، وحكايات ما قبل النوم قامات الناس وظلالها خطوات المبكرين لنصب مصائدهم لرائحة الخبز التقطت حتى عواء الذئاب في وادي الجدارية.

إن قلم القاص في هذه المجموعة من بداية كتابتها وهو طالب في الإعدادية، يرصد صدى جدران الصفيح وهي تبتسم من الفرح وتئن من الحزن والألم.

إن قلمه الحبر السائل يرصد الخطى لطابور الفتيات ذهابًا وإيابًا، للارتواء من صنبور المياه الوحيد في وسط حي الحطية وعيون الشباب المشاكسة.

إن هذا القلم اليافع يرصد في قصصه ابتداءً من: الصحوة، ومكتوب، والبرقية، والعاشق الحائر مرورًا بمقبولة، ووجبة إفطار، والضحية والإحباط، وانتهاءً بالحاج عطية وغيرها.

أي في هذه القصص يرصد المجتمع، والتاريخ والطبيعة والوطن والشمس والقمر والهواء والأمل، والأحداث العابرة التي طبعت بصماتها على جسد هذه المدينة الجميلة.

وحتى لا يأخذني الخيال بعديًا، أقدم لكم هذه المجموعة القصصية وصاحبها، أمانة بين أيديكم لتقلبوا صفحاتها وتقرؤوها في تمهل وروية.

القاص/ سعيد خير الله صالح

طبرق

مقبُولَة

أقفل الشيخ معتوق باب دكانه في ارتباك ظاهر، وقد علت وجهه المغضن بالتجاعيد مسحه من الكآبة والقلق، حاول أن يخفيهما بالتعوذ من الشيطان الرجيم، الذي أفسد عليه كل شيء ووسوس في صدر مقبولة فتاته الصغيرة وجعلها تقدم على تلك الفعلة النكراء.

كانت الأيام القليلة الماضية بالنسبة له هي أجمل ايام عمره نسي خلالها المرحومة زوجته التي فقدها منذ سنين، ونسي خلالها أولاده الأربعة الذين يعملون في مدينة بنغازي، نسي خلالها كل شيء حتى الهمسات التي كانت تملأ كل ذرة من ذرات جسمه.

كانت مقبولة بالنسبة إليه هي الواحة الوارفة الظلال التي يمني نفسه بالركون إليها خلال السنين الباقية من عمره.

قال له الحاج فرج عندما علم أنه ينوي الزواج من تلك الفتاة الصغيرة:

ـ سوف تندم يا حاج معتوق إنك لست صغير السن ومقبولةهي أصغر من أبنائك جميعًا.

لكنه كان يصر على امتلاك هذه الزهرة المتفتحة ولن يأبه بكلام الناس إنهم يحسدونه على حد قوله.

وبادره جاره الحاج نصر:

ـ لماذا تصر على امتلاك هذه الطفلة المسكينة؟ إنها سوف تحيل أيامك الباقية إلى قطعة من الجحيم أيها العجوز.

لقد كاد أن يصفع صديق طفولته الشيخ سالم عندما لمح له بأن فتاته مقبولة تحب شابًا يافعًا، وإنهما اتفقا على الزواج بعد أن تفرغ من دراستها، كان يظهر له أن الحب خرافة لا تعني شيئًا، وأن بيته الواسع وثروته الكبيرة سوف تحطم تلك الخرافة، بينما أهل القرية يعتقدون أن الحب سيل جارف لا يعرف شيئًا اسمه المستحيل محض هراء.

كان يظن الشيخ أن فتاته الجميلة ستهبط الليلة إلى بيته وسط الزغاريد، وطلقات البارود وصيحات الرجال،

لكن شيئًا رهيبًا قد حدث منذ قليل جاءه طفل يصرخ في وجهه:

ـ مقبولة ألقت بنفسها في البحر.

أحس بالذعر وبأن كل ما كان يتمناه قد ذهب أدراج الرياح صوت مفزع يدوي يصرخ في أعماقه:

ـ أنت قاتل يا شيخ معتوق أنت قاتل مقبولة لم تكن راضية عن الزواج بك، فقد أعلنت رفضها لك وسمعت أنت بذلك ولم تأبه به، ظننت أن الأيام كفيلة بجعلها ترضى العيش معك ظننت ذلك.

ـ في تلك اللحظات الرهيبة كان الرجال يتجمعون حول الجسد المسجى على رمال الشاطئ، ورغم برودة الموت فقد ظل وجهها الجميل ينبض بالدفء، العيون تتطلع إليه تحدق فيه تكاد أن تخرج من محاجرها تعلن في حنق إنه السبب في هذه الكارثة، عينان وسط العيون تنظران إليه تكادان أن تطلقا الشرر تقولان له في غضب:

ـ لقد هدمت عشًا صغيرًا ملؤه الحب ومزقت قلبين طريين بيدك التي لا تعرف الرحمة.

كانت كتلة الشمس الحمراء القانية تجنح نحو المغيب، وكان الرجال والنساء يتجهون في هدوء وصمت في موكب جنائزي حزين إلى القرية الصغيرة، وهم يحملون جثمان فتاة، وثمة شيخ شاحب الوجه ذابل العينين، يغمغم في ذهول وقد شخص ببصره نحو البحر، وكأنه يبحث عن حلم جميل ضاع بين الأمواج.

مكتوب

كانت المعلمة تشرح الدرس والتلميذات ينصتن لها في شغف، وفجأة يفتح الباب تطل منه المديرة برأسها الضخم، تكنس الفصل بنظراتها تبدد الصمت قائلة:

ـ غالية حسن المنصوري:

تقف صبية أنيقة الهندام، قصيرة الشعر خضراء العينين دقيقة الأنف، لم تتجاوز العقد الثاني من عمرها، كانت تجلس في آخر الفصل والمديرة تحدق فيها ثم قالت:

ـ احملي حقيبتك وتعالي..

الرعب يتملكها، التساؤل يمزقها، تخرج وراء المديرة تاركة زميلاتها، وهي في دهشة وذهول تتساءل:

ـ ماذا فعلت حتى تستدعيني المديرة؟

في حجرة الإدارة تقف الفتاة مرتبكة مضطربة، وقد وضعت حقيبتها فوق المنضدة وهي وسط بحر عميق من التساؤلات والحيرة، غير أن انتظارها لم يطل فقد التفتت إليها المديرة لتنقذها من دوامة الشك والتساؤل:

ـ والدك في المستشفى فاذهبي إليه.

ترتعد فرائض الفتاة، يتقلص وجهها، وتتساءل في لهفة:

ـ أبي؟ ماذا جرى له؟

ـ إنه بخير يا غالية لا تفزعي..

خرجت مهرولة مطلقة ساقيها للريح، لم تنتبه لنداء المديرة خلفها:

ـ حقيبتك يا غالية.

كانت تطارد الرصيف بساقيها كغزالة شاردة، العيون تكاد تخرج من محاجرها وهي تحملق فيها، تخرج من شارع (عمرو بن العاص) لتدخل إلى الشارع الرئيسي، حيث كانت الحافلة تقف في المحطة تهرول نحوها تدفن نفسها فيها، تتحرك في بطء تهمس الفتاة بينها وبين نفسها:

ـ أبي اليوم في الصباح ونحن على مائدة الإفطار أخبرته أن يشتري لي فستانًا أعجبني.

فأجابني:

ـ عندما أعود من العمل سوف أشتريه لك. شردت بذهنها إلى سنوات الطفولة، وتلك الليلة المشئومة التي فقدت فيها أمها الحنون.

تذكرت كيف أغدق عليها والدها بحنانه وعطفه بعد رحيل أمها، ووفر لها كل ما تحتاجه، ولم يجعلها تشعر أبدًا بالحرمان، فكان هو كل شيء في حياتها، تصل الحافلة أخيرًا المستشفى تدلف نحوها تترجل منها مسرعة، تخطو نحو غرفة الاستعلامات، تسأل الموظف المختص عن أبيها وفي أي قسم هو؟ يومئ إلى ممرضة أن تصطحبها إلى القسم المذكور في الطريق تبادرها ملائكة الرحمة في تعجب:

ـ أنت أول فتاة أصادفها في حياتي لا تفقه شيئًا عن المستشفى.

لم تجبها فقد ذهب ذهنها بعيدًا وهي تسير خلفها، هذه المستشفى بالنسبة لها غول مخيف، سبق له أن خطف أمها من قبل، التي لم تخرج منها إلا إلى المقبرة.

تنتبه من شرودها على صوت الممرضة، وهي تشير لها إلى الغرفة التي يقبع فيها والدها، تقف أمام الباب مذهولة تقرأ عبارة (غرفة العناية الفائقة) يمنع الدخول.. تتمتم في غضب: لن يستطيع أحد أن يمنعني من رؤية أبي.

ما أن تطلعت إلى الداخل حتى تلاشت المرئيات من أمام عينيها، وسقطت فاقدة الوعي من هول ما رأت، لم تفق إلا بعد ساعة من الزمن، الممرضة كانت تقف بالقرب منها والطبيب يصيح فيها غاضبًا: من الذي أدخلها هذه إلى هنا؟

والدها مسجى على السرير يغطي جسمه (الشاش) الأبيض، تقترب منه والدموع تغسل وجنتيها في حزن وألم تصيح:

ـ أبي .. أبي ما الذي حدث؟

يأتي صوته واهنًا:

ـ صعقني التيار الكهربي عندما كنت أقوم بإصلاح إحدى وصلاته.

ـ حذرتك كثيرًا منه يا أبي كنت تقول لي دائمًا إنه كالعجين في يدي أشكله كيف ما أريد وأشاء ها هو قد غدر بك.

شرعت تبكي بحرقة، الطبيب يقف حائرًا، درجة حرارة المصاب ترتفع ينبعث صوت الأب من جديد خافتًا متقطعًا:

ـ لا تفزعي يا غالية هذا هو المكتوب.

لفظ أنفاسه الأخيرة، أطلقت الفتاة صرخة قوية مزلزلة، وهي تندب وتلطم وجنتيها .. أبتاااااااااه

برقية

ـ لقد كدت أن تحطم مستقبلي، ولو إنني أعلم أنك تدعوني لأجل هذا لما جئت قط.

ذات مساء وصلتني برقية عاجلة، فضضتها في دهشة، وقرأتها في لهفة: «ولدي العزيز/ يطلب منكم الحضور عاجلًا لأمر هام وضروري جدًا».

تساءلت ما هذا الأمر الذي يستدعيني من أجله أبي؟ ماذا حدث له؟ هل أشتد عليه المرض خاصةً وأن صحته ضعيفة، وهو يزحف نحو الشيخوخة، تملك قلبي الفزع والاضطراب، كأن هناك شيئًا خطيرًا قد وقع للأسرة في غيابي، لم أنم في تلك الليلة، ولم يغمض لي فيها جفن، أصبحت حائرًا كالكرة التي تتقاذفها الأرجل، صريح الأسئلة الغامضة والشكوك القاتمة، ليلة طويلة من أتعس الليالي في حياتي.

ما أن أشرقت شمس الصباح حتى أسرعت إلى مدير المعهد، دخلت عليه، أخبرته بأمر البرقية التي وصلتني بالأمس، أذن لي بالسفر بعد أن نصحني ألا أتغيب كثيرًا،

خاصةً وأن الامتحانات على الأبواب، ركبت أول سيارة أجرة قاصدًا قريتي النائية، وطنين كلمات البرقية في أذني كطنين النحل المفزع (ولدي العزيز، يطلب منكم الحضور..) ما زال القلق يمزقني، والطريق طويل كأنه لا نهاية له يتلوى مثل الثعبان والسيارة تسابق الريح، صوت «مطربة شعبية» يدوي من مسجل السيارة يصم الأذان، الركاب ما بين من يؤرقني متحدث إلى جاره، ومن هو يخلد إلى الصمت أو مستسلم للنوم.

وأنا فريسة للظنون والشكوك، عقارب الساعة تدور ببطء كجمل يمشي الهويني، صراع عنيف أحس به في رأسي من التفكير في المجهول، وما تخبئه هذه البرقية وراءها من غموض، وبعد عدة ساعات مرت وكأنها أعوام لاحت لنا أشجار النخيل الشامخة والواحة الصغيرة وبيوتها البيضاء والشمس الغاربة.

ترجلت من سيارة الأجرة في الشارع الرئيسي الوحيد، أهل الواحة يحدقون فيّ وكأنني غريب عنهم، أو في ما يلفت

الانتباه يا له من أمر مذهل، اقترب مني أحدهم والابتسامة على شفتيه وحياني قائلًا:

ـ كل شيء على البركة يا صالح.

إذن فهو حدث مفرح، الحمد لله وماذا يكون هذا الحدث المفرح؟ هل يعني ذلك عرس أخي سعيد الذي يصغرني بعامين؟ تُرى من هي صاحبة الحظ السعيد التي ستزف إليه؟ هذا ما لا ينبغي التفكير فيه الآن، بعد أن تلاشت مخاوفي وزالت شكوكي، واصلت طريقي بخطى مسرعة، وهرعت إلى المنزل، أهل الواحة يدخلون ويخرجون، القدور على النار، الدخان يعلو كثيفًا ويعانق السماء، الزغاريد تدوي في الفضاء، في هذه اللحظة اقترب مني صبي أعرفه جيدًا كنت اساعده في شرح بعض العمليات الحسابية الصعبة وبعد التحية سألته:

ـ أهو عرس أخي سعيد؟

غمغم الصبي في سخرية باهتة وقال:

ـ إنه ليس عرس أخيك.

أصابني الذهول وغدوت في حيرة من أمري وتساءلت مأخوذًا:

ـ إذن عرس من؟ نظر الصبي إليَّ بابتسامة ساخرة:

ـ أنه عرسك يا صالح ألا تعلم؟

امتقع وجهي أحسست بغصة في حلقي، لم أنبس ببنت شفة، كانت صدمة قاسية يا له من أمر مجحف زواج في الغياب؟ هل هذا يصدق؟ أهكذا تفعلها يا أبي؟ أهذا وقته سامحك الله؟ ماذا أفعل وقد جئت بقدمي، التفت حولي فلم أجد الصبي، هرع مسرعًا يزف خبر وصولي للجميع، مازلت متسمرًا مكاني، خطرت لي فكرة أن أعود من حيث أتيت، وأتخلص من هذه الورطة، غير أنني ما خطوت إلى الوراء خطوة حتى أقبلت نحوي الحاجة عازه وهي تطلق الزغاريد فرحة بقدومي، من أين خرجت هذه العجوز؟ حملت عني الحقيبة وأحاطتني بوابل من التهاني، سرت خلفها كالأسير في خيبة وألم، لقد وقعت وانتهى الأمر، ولا حيلة لي، وعليّ أن أستسلم للأمر، بعد برهة سألتها:

ـ ومن العروس؟

ـ إنها نورية أجمل بنات الواحة..

ـ نورية ابنة موسى حسن؟

ـ أجل هي..

وهذه صدمة ثانية تلك الفتاة التي أمقتها في طفولتي تزف إليّ رغمًا عني، ماذا أفعل وقد انتهى الأمر؟ هل أرفض لكن هذا يعد خروجًا على طاعة أبي، أصل المنزل حيث الضجيج والصخب، الأقارب والأصدقاء يعانقونني ويمطرونني بالقبلات، تعلو الزغاريد ويدوي البارود في الفضاء، بعد لحظات همست لابن عمي الجالس بالقرب مني:

ـ أليس في الإمكان تأجيل هذا العرس؟

ـ لماذا يا صالح؟ والذبائح نحرت ووجبة العشاء بعد قليل..

ـ أنني أحس بصداع عنيف في رأسي.

نهض وأسرع إلى الداخل سرعان ما جاءني بكوب من الماء وقرص الأسبرين، الزواج لم يكن في تفكيري على الإطلاق قبل التخرج، قطع علي ابن عمي الصمت قائلًا:

ـ انتظرناك بالأمس لكنك تأخرت.

رشفت جرعة ماء وراء قرص «الأسبرين» أجبته قائلًا:

ـ البرقية وصلتني متأخرة.

همست بيني وبين نفسي ليتها ما وصلتني، يا له من حظ عاثر الأصدقاء يهتفون بي:

(خلك شجاع يا صالح راهي ليلتك الليلة).

يمضي الوقت متثاقلًا وتحين اللحظة الرهيبة ويفسح لي الرفاق الطريق، وهم يصفقون خلفي أحس بالاضطراب، أفتح باب الغرفة كانت تقبع منكمشة مذعورة، في إحدى زواياها بفستانها الوردي، تمتد يدي توصد الباب من الداخل أحملق فيها، الخوف والذعر يبدوان على محياها، اقتربت منها وأنا ألهث بين فخذيها، يزداد خوفها كانت تجلس القرفصاء، الانقباض يسري في كيانها إزاء حركات يدي المتشنجة المرتعشة، تتكرر محاولات يدي أمد أصبعين في محاولة اثنين ثلاثة لم ينبجس الدم، حاولت أكثر من مرة لكن دون جدوى،

والمنديل الأبيض لم تلوثه نقطة دم، تهرب بعينيها المغرورقتين بالدموع، دقات متتالية على الباب تطالبني بالواجب، الجمهور خارج الحلبة ينتظر النتيجة، صرخت فيها:

ـ أنت طالق طالق.

ثم قفزت خارجًا، أقاربي يترصدون لي عند الباب، تخلصت منهم بصعوبة بالغة، رميت بالمنديل الأبيض في وجوههم.

لم تشرق شمس اليوم التالي حتى كانت الفتاة في بيت أهلها يجللها الخزي والعار، بينما كنت أودع أبي قائلًا له:

ـ لو أنني أعلم أنك تطلبني لأجل هذا الشيء لما جئت قط.

وودعتهم عائدًا إلى مدينتي الغافية في أحضان البحر، حيث معهدي وكتبي وآمالي هناك.

العاشق الحائر

(1)

ذات صباح مشرق جميل، كان يسير معها ببذلته العسكرية الأنيقة، وهي بفستانها الوردي وبيدها حقيبتها الصغيرة السوداء، تداعب الريح خصلات شعرها الحالك كسواد الليل يهمس لها:

ـ أنا لا أطيق فراقك.

هتفت هي:

ـ حتى أنا أيضًا لو لم تكن عمتي مريضة لما سافرت.

هي جارة له، تعمل معلمة بإحدي المدارس الابتدائية، متوسطة الجمال، أنيقة الهندام، كانا يلتقيان كثيرًا، أحبها وأحبته أزداد حبها رونقًا وجمالًا، كانا يسيران وعندما وصلا إلى المحطة صافحها، وهو يشد على يدها، الأعين الرصاصية تحدق فيهما، وهي تكاد تخرج من محاجرها، ودعها ذاهبًا إلى معسكره.

(2)

وبعد مضي ساعة من الوقت، يصل إلى مسامعه وهو في المكتب وقع خطوات، تتوقف أصابعه عن الضرب على الآلة الكاتبة إنه الآمر بعد لحظات يستدعيه يبادره قائلًا في دفعة واحدة:

ـ لقد تقرر نقلك مع «كتيبتك» إلى الجنوب وبالتحديد إلى سبها.

كاد ان يسقط على الأرض مغشيًا عليه، لولا أن تمالك قواه وشد على أعصابه، يا له من خبر صاعق! شحب وجهه وتفصد جبينه عرقًا، أجاب مترددًا:

ـ لكن يا سيدي لا أستيطع..

قاطعه الآمر بقسوة:

ـ هذا أمر ويجب عليك أن تنفذه على الفور فلست وحدك ولا مجال للمناقشة فيه؟

كيف ينتقل هو إلى هناك في الجنوب؟ وما المدة التي سيقضيها هناك؟ إنه لا يدري كيف يبتعد عن حبيبته؟ هو لا يطيق فراقها، لكن ما باليد حيلة إنها الأوامر والتعليمات العسكرية القاسية، عاد إلى منزله مع الظهيرة يجر قدميه بخطى متثاقلة، وقلبه مفعم بالحزن والقلق: إنه حائر.. حائر.

في صباح اليوم التالي قصد تلك النافذة التي شهدت أروع أيام حبهما، وجلسا يتناجيان تحتها، اقترب منها دس في زاويتها قصاصة صغيرة من الورق، ثم ودع أهله وغاب عن الأنظار، واختفى في تلك الحافلة التي ستقله إلى هناك.

(3)

وبعد أسبوع عادت الحبيبة، وهي في شوق وحنين لرؤية فتى أحلامها وفارسها الأنيق وما إن فتحت نافذة غرفتها حتى سقطت منها ورقة التقطتها بدهشة متسائلة! من أين هذه؟ وبيد مرتعشة أمسكت الورقة حدقت في سطورها قرأت بسرعة:

حبيبتي الجميلة/ حواء

شاءت الظروف أن أسافر دون أن أجدك في وداعي، لقد انتقلت مع كتيبتي إلى الجنوب، ولعل تعسكرنا هناك لن يطول، بضعة أشهر وسوف أعود أخطبك من أهلك، وتزفين إليّ وتبقين معي مدى الحياة أرجو المعذرة وهدئي من روعك وليطمئن بالك وأسلمي لمن لا ينساكِ مدى العمر.

المخلص لك على الدوام/ خالد.

كانت صدمة قاسية بالنسبة لها انحدرت الدموع من عينيها حبهما كان جارفًا وقويًا كالتيار..

تمر الأيام بطيئة ثقيلة هي تنتظر عودته على أحر من الجمر، لكن فتى الأحلام لم يأتِ ولم تعد تدري عنه شيئًا، تسرب اليأس إلى قلبها ومضت السنوات، أصبحت نهبًا للوساوس وأسيرة الشكوك، هل تضيع زهرة عمرها تنتظره؟ ابتسمت لنفسها وهي تحدق في المرآة وتصلح من زينتها، وتبتسم ساخرة:

ـ ياما ضاع في الدنيا.

(4)

بعد سنوات عاد خالد إلى مدينته وإلى فتاته، وهو يكاد أن يطير من الفرح، يحس بالحنين المتدفق يغمره إليها، بعد مصافحة الأهل، خرج يبحث عنها إنه في شوق إليها، تلك التي كانت صورتها لا تفارق خياله، اقترب من منزلها وهو حائر متردد، النافذة موصدة، لمح أحد أخوتها الصغار اقترب منه صافحه سأله عنها بادره الصبي:

ـ أختي تزوجت من أسبوع..

أحس بصدمة قاسية تفصد جبينه عرقًا، أظلمت الدنيا في وجهه كان يردد:

يا لها من طعنة دامية، ذهب مكسور الجناح كطير ذبيح، وكانت الشمس تتراجع نحو الأفق البعيد.

وجبة إفطار

بدت أقدامه ثقيلة مجهدة، تنوء بحمل جسده، الخطوات التي تفصل بينه وبين بيته على مدى بصره، استحالت إلى أميال طويلة، زاغت عيناه وكأنها لمحت ما يدور بخاطره، لقد انتهى مخزونه من الطاقة الداخلية المختزنة، وعليه أن يستخدم الرصيد الاحتياطي غير المنظور أو المعنوي، كما يحلو للكثيرين أن يسموه الإرادة، وعلى الفور اندفعت قدماه في خفة ورشاقة، تلاشت من ذهنه تمامًا واقعة الأمس، تلك المفارقة التي تمددت عبر أفكاره منذ أن غادر البيت صباحًا وعلى امتداد كل ساعات العمل حكاها للزملاء، وتظاهر بأنه يتنبأ بها فأفتعل الابتسامات والضحكات، رغم عواء أمعائه في الداخل ومطارق الوهن والضعف التي تمتد إلى رأسه، وتكاد تصيب بالشلل بقية أطرافه، بادلته الأحلام والرؤى، إلى أن استيقظ فجأة ليجد ابنه وزوجته في سبات عميق، قام يتحسس المصباح أضاءه، وتحرك في اتجاه الدولاب الصغير، في محاولة لإخراج الساعة من جيب

السترة، ولكنه وهو في بداية الطريق سمع صوتًا مجلجلًا «الله أكبر الله أكبر».

استدار وعاد للنوم دونما تفكير، ليتناول كوبًا من الماء يبلل شفتيه ويرتشف ما تيسر، فلم يعد هناك ضرورة لإيقاظ الزوجة، أحاسيس الجوع كانت ضعيفة فأسلمته للنوم السريع، قام ليكتشف بسهولة هذه المرة أنه تأخر عن العمل، فأسرع مهرولًا إليه، كان لابد من تبرير أمام رئيسه وزملائه، فروى قصة الصيام بلا سحور، ربما أضاف الجري إلى متاعبه وإجهاده، تنهد بارتياح وهو يدلف إلى داخل البيت، اتسعت فتحتا أنفه للاختبار، أخرج الهواء ثقيلًا وسريعًا من رئتيه، ليدفع بكمية جديدة من نفس المحاولة، جسدت تقاطيعه كل خيبة الأمل، تجاهل الابتسامة الوديعة التي كست ملامح الزوجة، وركزت نظرة ذات دلالة أقفلت شفتيها على عبارة ترحيب، وجعلها تدرك على الفور فداحة الخطأ الذي وقعت فيه، عندما لم تستيقظ في الوقت المناسب لتعد له طعام السحور وقبل أن تسعفها الكلمات ببادرة الاعتذار كان هو قد بدأ:

ـ أيش صار في الفطور؟

تلعثمت الزوجة واضطربت قبل أن تنطق متسائلة:

ـ وين اللحم والمعدنوس؟

استحالت تقاطيعه إلى حلبة يتصارع فيها الانفعال والسخط والغضب، وجمدت حدقتا عينيه في اتجاه ما وزفر:

ـ ليش ما دزيتي منصور؟

ولم تجب الزوجة وتزايد خوفها، أن زوجها تنتابه نوبة غضب قاسية قد تجعله لا يتردد في عقاب وحيدها (منصور) الذي خرج يلعب شأن أطفال القرية، ولم يعد حتى الآن بعيدًا عن متناول يد الأب، ارتاحت الأم وسرى نوع من الهدوء إلى أعماق نفسها، ودون أن ينتظر الزوج جوابًا اندفع إلى الخارج في طريق واحد، لم تكن الزوجة في حاجة إلى الاستفسار عنه، إنه متجه إلى المجزرة الوحيدة في القرية، مرة وأخرى عادت أقدامه إلى التمرد، قهرت نفسه تمامًا مشاعر التعب والإنهاك.

سنوات عمره تجاذبتها عوامل الخوف والقلق المضني، وعدم الاستقرار حتى غدًا كالعجوز وهو لم يزل في مقتبل العمر، حتى القرية نفسها صارت مملة وكئيبة لم يعد يحس إزاءها بمشاعر الود والحب..! تمنى لو نقلوه منها، رغم أنه يعرف جيدًا، إنه مجرد موظف تعس يمتص الهواء والزمن، ويتناول أجرًا ضئيلًا لا يساعده على حياة المدينة بأعبائها وتكاليفها الباهظة.

اقترب من المجزرة الوحيدة في القرية، إنها مكتظة بالزبائن لا مكان فيها لموضع قدم، انتظر عند الباب على مضض وضيق، في وقار واحترام، مازال ينتظر دوره، الوقت يمضي صبره يكاد أن ينفد، أخذ يدفع من هم أمامه بمنكبيه حتى أصبح في المقدمة، يخاطب التاجر بصوت عالٍ:

ـ يا سيدي الحاج كيلو لحم و....

إلا أنه لم يلتفت غليه، ولم يعره الاهتمام، وأخذ يزن لمن هو خلفه شعر بالغضب: هذا القصاب لماذا لم يلبِ طلباتي؟ وقد بح صوتي، ولما ضاق به القصاب ذرعًا التفت إليه قائلًا:

ـ طول بالك اللي عنده الفلوس قبل.

أحس صالح بالإهانة، وكأن سهمًا قد أصابه لمعت عيناه ببريق الغضب وصرخ في وجهه:

ـ هل أنا أشحت منك؟ إنني أنقدك أجرك كل شهر.

وبادره القصاب قائلًا:

ـ وأنا حر في لحمي انتظر فنحن صيام.

وثارت ثائرة صالح فأرغي وأزبد «هذا البرميل ذو الرأس الهلامية الفارغة والكرش المتدلية أمامه يحرجني على ملأ من البشر، ويرفض طلبي ماذا يظن نفسه؟».

يحس صالح بالإهانة، انتفخت أوداجه، امتدت دائرة السباب بينهما واتسعت كالبالون، امتدت الأيدي لتوقف العراك تفصل بينهما، لكنهما امتدت بعد فوات الأوان، أهل القرية يتساءلون وهم يهرولون، حيث توقفت سيارة الإسعاف، يتساءلون في شغف:

ـ ماذا جرى؟

ـ رمضان كريم صالح (حشش) وضرب صاحب المجزرة بصروف الميزان.

ـ قتله وإلا لا؟

ـ لا أمسكوه قبل أن يقتله.

وفي اليوم التالي خرج أهالي القرية يهرولون ويزحفون نحو السوق كالجراد، فلقد أغلقت المجزرة الوحيدة في الحيطة.

الإحبـاط

ها أنت تقبع في هذه الحجرة ذات الأثاث اللامع، والفراش الزاهي، حيث تتناثر أوراقك وكتبك على المنضدة بإهمال، تنفث دخان سيجارتك وتشخص ببصرك محملقًا في صورة طفلتك، وكلماتها التي مازالت ترن في أذنيك، عندما حملت حقيبتك وعزمت على السفر، تشبثت بك وأجهشت بالبكاء، وهي تتساءل:

- إلى اين يا أبي إلى أين؟

- إلى المدينة يا صغيرتي لأشتري لك دمية وحلوى من هناك.

المنضدة أمامك تمتلئ بأعقاب السجائر، تطفئ السيجارة لتشعل الأخرى، الوقت يمضي، عقارب الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، النوم لم يداعب جفنيك، تطل من الشرفة، تلمح أنوار المدينة تتلألأ، تعود من جديد إلى مجلسك، تتذكر كيف وطئت قدماك هذه العاصمة الكبيرة لأول وهلة، راعك الزحام الفظيع، الأرصفة تكتظ بالناس،

والسيارات الكثيرة من مختلف الأشكال والماركات، في هذا الفندق الرفيع تبدو على ملامح النزلاء الأناقة والثراء، تعلمت كيف تصبح أنيقًا مثلهم وتضع رباط العنق، عدت إلى الوراء بذهنك إلى مدير المدرسة التي كنت تعمل بها، في تلك القرية الصغيرة حيث قال لك بالحرف الواحد:

ـ أنت يا إبراهيم مدرس وكاتب ليس هنا مكانك، «هل يود التخلص مني أم ماذا؟ لكن ماذا فعلت له حتى يتخلص منك؟».

أم يشفق عليك من مهنة التدريس؟ المهنة الصعبة والقنطرة التي تعبرها الأجيال بينما أنت في مكانك لا تتغير، تحترق من أجل الآخرين، تكد وتتعب من أجل أن ترى تلاميذك كزرع نما وأخرج شطأه، مدير المركز الثقافي هو الآخر عندما اقترحت عليه إقامة ندوة أو أمسية ثقافية ابتسم في وجهك قائلًا:

ـ إن كان تبى ندوات وأمسيات ثقافية عليك بالعاصمة طرابلس.

ووجدتها فرصة سانحة فقررت السفر، استقر بك المقام في هذا الفندق الرفيع، ما إن تتجاذب أطراف الحديث مع أحد النزلاء، حتى يمطرك بكلمات الإعجاب والإطراء:

ـ لقد قرأت مجموعتك القصصية «المشجب» كم هي رائعة.

عندها كنت تحس بالغرور والكبرياء، تغتر في مشيتك في بهو الفندق كالطاووس الصحف والمجلات تكتب عنك والتليفزيون يستضيفك، ولكن ها قد مضت عليك هنا أكثر من تسعة أشهر فماذا كتبت؟ وجل أوقاتك تضيع في الأحاديث الفارغة الجوفاء، فتشرع تحكي عما أنتجته في الماضي من قصص قصيرة في تلك القرية منبت الإرهاصات الجميلة.

وما إن ينتصف الليل، حتى تهرع إلى غرفتك، تأخذ القلم بين أناملك لكن الحنين يعاودك، ويهزك الشوق لنبع لا ينضب، تتذكر طفولتك الشقية في تلك القرية، حيث كنت مع رفاق العمر تمضون جل أوقاتكم في مطاردة «الجرابيع» وشى «القعمول» على مرأى من تلك الوجوه

الطيبة التي لفحتها الشمس في مواسم الحصاد، امتدت يدك إلى آخر رسالة وصلتك من تلك المخلوقة الطيبة التي أكل يديها خبز التنور.

زوجي العزيز/ إبراهيم.

تحياتنا وأشواقنا إليك..

طفلتك ربيعة لا تكف من السؤال عنك في لهفة وشوق، ها قد طالت غيبتك والسيدة والدتك ما تنفك تدعو لك بالعودة إليها سالمًا في كل صلاة.

تلاميذك من حين لآخر يترددون علينا يسألون عنك، وأحدهم هو الذي قام بكتابة هذا الخطاب إليك كيف أنت؟ وما هي أخبارك؟ ومتى تعود إلينا؟

المنتظرة عودتك/ زوجتك.

أنتم معي دائمًا وصوركم تتراءى لي، ولا تفارقني لحظة واحدة، ما أبشع الوحدة والمرض آه ... المرض هل تتذكر تلك الحمى اللعينة التي أجبرتك على أن تلزم الفراش لمدة

ثلاثة أيام بلياليها؟ أحسست وكأنها ثلاثة أعوام.. تلك الوجوه الشمعية المحنطة التي كانت دائمًا تلتف حولك في جلساتك، ولم تفارقك قط ها هي قد اختفت، ولم يعد يسأل عنك أي واحد منهم، حتى الدواء يوم أن أصابتك الحمى لم تجد من يأتيك به سوى ذلك العامل السوداني الطيب القلب، من يومها سخطت عليهم، وأصبحت تكره النفاق والرياء، والابتسامات المصطنعة لتذهب تلك الشهرة إلى الجحيم خلال إقامتك في هذا الفندق الرفيع ماذا أنتجت؟ لا شيء! الأفكار تهرب منك، القلم يتسمر بين أناملك، تحس أنك مجرد رقم صغير تائه ضائع في هذه المدينة الكبيرة المزدحمة، حتى الوجبات اليومية الدسمة لم تعد تحس بطعم لها في فمك، غدت كقطع من البلاستيك، هذا الجحيم لم يعد يطاق، أخذ ضوء الصباح يزحف تهزم أمامه جحافل الظلام، ما إن أشرقت الشمس حتى كان إبراهيم قد جهز حقيبته وارتدى ملابسه، وألقى نظرة وداع على تلك الغرفة الوثيرة، راكبًا

أول سيارة قاصدة قريته في أقصى الشرق، وفي الطريق تراءت له زوجته كغزالة شاردة تركض عبر الحقول وسنابل القمح الأصفر، وخطرت له فكرة رائعة لمشروع رواية جديدة، سيشرع في كتابتها هناك، حيث الطبيعة الساحرة، والسواعد السمراء الكادحة، وتلامذته الذين سيفرحون بلقائه وعودته ويمطرونه بمئات الأسئلة، هناك حيث تورق السنابل وتزهر الكلمات وتبتهج الحياة.

الجمـل

كانت الرياح الخريفية تهب محمّلة بالأتربة والغبار في ضحى ذلك اليوم، بينما الجنود الأحباش يسوقون أمامهم قطيعًا من النوق في اتجاه البحر، يلهبون مؤخراتها بالسياط، تشرئب بأعناقها الطويلة تلتفت يمنة ويسرة، فزعة من البحر وأمواجه المتلاطمة، تركض مذعورة، تصدر دمدمة بأخفافها، تضيع صيحات الجند الأحباش وسط جلبة القطيع، ثمة شيخ هرم كان يجلس يراقب الأحداث عن كثب، وعندما شاهد القطيع يقترب من باب الميناء صاح في رفيقه متسائلًا:

ـ إبل من هذه يا فضيل؟

أجابه: إنها إبل بو المخمس المصموتي.

ـ وإلى أين يسوقونها؟

ـ إلى الميناء ومن ثم يرحلونها إلى روما.

كان ثمة عجوز آخر يجلس في كآبة وغضب يحملق في النوق يتمتم في حسرة:

ـ ما بي مرض غير سرقة كحيله.

ما بين يوم وليلة.

وعدو تخاف يعدمك قبل ما تشتكي له.

ما إن اقتربت النوق من باب الميناء الرئيسي، حتى اعترض سبيلها جمل فحل، لم يدعها تدخل، كان يرغو ويزبد، يلوي رقبته الطويلة ناحية اليمين وناحية اليسار،يرفض دخول النوق من الباب أسواط الجند تلهب ظهر الجمل، الوقف أمام النوق، فطن أحد الأحباش إلى أنه ما أن اقترب من الجمل والسوط في يده حتى هز الجمل رأسه وشرر الغضب يتطاير من عينيه، أسرع الجندي ولاذ بالفرار، خوفًا على حياته باحثًا عن زملائه الذين ولوا الأدبار في رعب وفزع، بينما الجمل تسمر صامدًا أمام الباب الرئيسي للميناء والنوق امتثلت لأمره.

لم تمض دقائق حتى أقبلت سيارة عسكرية إيطالية، ترجل منها بضعة من عساكر طليان، تجمهر بعض الأهالي يراقبون ما يحدث، أقبل عمال الميناء وهم يتساءلون:

ـ ماذا هناك؟

النوق واقفة تتلفت في ذعر وفزع، والجمل يسد أمامها فتحة الباب في عناد وتحد، وهو لا يدري ما يدبر ضده في هذه الأثناء، جرى جدال بين الضابط الإيطالي وجنوده، ثم اتجه نحو عمال الميناء يتحدث بالإيطالية والمترجم يترجم ما يقوله: أيها المواطنون تنعقد أمامكم المحكمة الصورية الإيطالية اليوم، لمحاكمة هذا الجمل العاق بتهمة عصيانه أوامر الحكومة الإيطالية، ولذا نحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص حتى الموت، وبعد تلاوة حكم المحكمة، تعالى هرج ومرج بعض الأهالي الحاضرين، لكن الجنود الطليان صوبوا بنادقهم نحو الجمل الضخم، في صلف وكبرياء، من على بضعة أمتار أعطى الضابط الإيطالي أوامره للجنود

بالرمي على الجمل، بعد برهة دوى أزيز الرصاص، وانهال على جسد الجمل الذي أخذ يرغو ويصيح، حتى تكوم أرضًا متسربلًا بدمائه الغزيرة وقد أصبح جسده مثل الغربال من الرصاص، أطلق الجمل رغاء مدويًا وهو يخبط بأرجله الأرض، كان الجمل قد سقط صريعًا بينما النوق تنسحب مذعورة تدخل الميناء والجند يلهبون ظهورها بالسياط.

حكاية الجندي حفالش

أنا حفالش الصابر حمد، التحقت بالجندية منذ الثامنة عشرة من عمري، أمضيت زهرة شبابي في التنقل من معسكر إلى آخر، أقمت بمعسكرات الجيش في الجنوب وفي أقصى الشرق، وكذلك في الغرب، خالطت الكثير من العسكر الجيدين ومنهم الأوباش، عرفت قسوة الحياة العسكرية وخشونتها، والنهوض المبكر والحلاقة اليومية، والتعليمات والأوامر العسكرية القاسية، بل ودخلت كل الحروب التي زج بنا فيها ديكتاتور ليبيا، قاتلت مع غيري من العسكر في وسط أحراش وغابات أوغندا، وعلى تلال وسفوح جبال لبنان، وفي صحاري ورمال تشاد الملتهبة، التي ضاع فيها أكثر من نصف جيشنا، حروب كلها خاسرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل، أتذكرها تلك السنوات المريرة القاسية، وكيف عدت من تشاد بساق واحدة أتراقص كالبندول، بينما راح الكثير من العسكر أشلاء في تلك الصحاري والرمال، فقدت الكثير من رفاقي هناك بعد إحالتي على الضمان، براتب أقل

من راتب المطلقة، يتذكروننني اليوم أخيرًا ماذا هناك؟ يستدعونني إلى قيادة المنطقة برسالة رسمية، قالوا ثمة تكريم لنا هناك، أخيرًا يتذكروننا ذهبت إليهم أجر قدمي وأنا أتراقص كالبندول بساق واحدة أتوكأ على عكاز، وكلي أمل في أن أحصل على علاج على نفقة الدولة في أوروبا، أو مبلغ كبير من المال أو شقة سكنية أقضي فيها بقية حياتي البائسة، دخلت قيادة المنطقة العسكرية كانت ثمة منصة قد زرعت في الساحة عليها كراسي فارهة، عشرات الكراسي التي وزعت أمام المنصة، والعسكريون يتواجدون من مختلف الرتب العسكرية، ارتميت على أحد الكراسي، صعد بعد دقائق أصحاب الرتب الكبيرة والنياشين، الذين هم في الحروب يخافون من ظلهم، كان ثمة مذيع مدني على المنصة يقترب من ناقل الصوت ويعطي الكلمة لآمر المنطقة الدفاعية، الذي ألقى خطبة عصماء عن الشجاعة والإقدام، وبعدها أخذ المذيع في تلاوة أسماء المكرمين من الجنود وضباط الصف والضباط، لا شك أنني سوف أتحصل على

شقة، أو سيارة جديدة، أو رحلة علاج إلى أوروبا، لتركيب رجل صناعية.

أسماء كثيرة لجنود لم أعرفهم، لكن أين كانوا كل هؤلاء؟ لم يدخلوا معنا في الحروب، هل أنهض وأصرخ فيهم كل هؤلاء من أين جاءوا؟ إننا لم نرهم في تلك الجبهات والحروب لكن ما دخلي بهم، بعد عشرات أسماء المكرمين، نودي على أسمي، اتكأت على عكازي وأنا أتفصد عرقًا، اقتربت من المنصة التي يجلس عليها الضباط، نهض أحدهم ومد لي بورقة كبيرة وهو يبتسم قائلًا :

ـ هذا وسام الشجاعة مبروك عليك.

رددت بيني وبين نفسي ماذا أفعل بهذه الورقة التي لا تأتي حتى برغيف خبز، ثم اقترب مني ضابط آخر قائلًا:

ـ هذه هدية لك.

حملتها كانت قطعة فرش عجمي اثنين في ثلاثة تحمل صورة الديكتاتور، ماذا أفعل أنا ماذا أفعل بها هذه؟ لله الأمر من قبل ومن بعد.

الضحيـة

ـ هه هه صابر العرج ...

ـ واصل سيره وهو يندب حظه السيئ ويومه التعس، الذي خرج فيه أول يوم إلى هذه الدنيا، التي يحس أنها أصبحت في نظره أضيق من سم الخياط، هو متردد لا يدري ما يفعل هل يذهب إليه؟ ويطرق بابه أو يعود أدراجه إلى كوخه، لكنه شقيقه وهو بحاجة إلى نقود ينفق منها.

ـ يكلم نفسه هاتف يرد عليه:

ـ اذهب إلى أي صديق آخر أفضل لك منه.

ـ لكنه أخي.

ـ حتى وإن كان كذلك ألا تذكر كيف تنكر لك بالأمس؟

ـ أجل أتذكره.

وبينما هو واقف شارد الذهن، إذا ببعض الصبية يعترضون طريقه صائحين فيه بسخرية:

وين ماشي يا العرج؟

ـ كطعنة خنجر حاد اخترقت تلك الكلمة جسده في عنادٍ وتحد:

ـ وإيش دخلكم أنتم؟

ـ يقاطعه أكبرهم:

ـ مازالت غير هذي حتى أنت يا العرج ترد علينا.

كان يقف حائرًا بينهم، تهامسوا عليه لضربه والهجوم عليه، ولكنهم ما أن هموا بذلك، حتى أقبل نحوهم الحاج عقيلة، اقترب منهم صاح فيهم:

ـ هيا امشوا ألعبوا بعيد وخلوا الراجل عنكم...

التفت بعضهم إلى بعض في خوفٍ، وولوا الأدبار هاربين ونجا هو منهم بأعجوبة عائدًا أدراجه نحو كوخه الصفيحي دخل غرفته، تمدد على سريره الحديدي، هرب من شجونه وأحزانه، ورحل بفكره بعيدًا، مع تلك الجميلة حبيبته، التي سحرته بابتسامتها الجذابة، وقوامها الرشيق، وعينيها الواسعتين

وشعرها المُسدل على كتفيها كخيوط حرير ذهبية، هو يعشقها فهل هي تبادله العشق؟ إنه لابد أن يلتقي بها في الغد ليصارحها، ويبوح لها بغرامه لكنه أعرج وما دخل ذلك في العشق هل حرام عليه أن يحب وتكون له محبوبة، وأيضًا فقير وعالة على غيره، لن تبقى هكذا دائمًا سوف تحصل على عمل، ثم راح في سبات عميق.

مع صباح اليوم تناول كسرة خبز مع كوب الشاي، ولبس حذاءه الوحيد، نظر في وجهه في قطعة المرآة، ثم أوصد باب كوخه، وسار بخطواته متعثرة وسط شارع الحطية المترب، حيث المحلات الصغيرة تصطف على جانبيه، اقترب من كوخها كانت بردائها الوردي الزاهي، والخاصة البيضاء تتدلى في خصرها، تكنس التراب بمكنسة أمام كوخها، اقترب منها كانت الابتسامة على شفتيها، بعد أن حياها نظرت إليه نظرة غريبة قائلة:

ـ تفضل أيش تريد؟

استجمع شجاعته وكلماته المبعثرة قائلًا:

ـ أنا بصراحة يا زهرة غاوي فيك.

ردت قائلة:

ـ فيا أنا.

ـ ونبيك شريكة حياتي.

قهقهت في سخرية لاذعة وبصوتٍ عالٍ بادرته:

ـ أنا نزوجك أنت مازالت غير هذي.

مما سمعه لا يكاد يصدق أذنيه فيما سمعه، صدمته بإجابتها القاسية، احتقن وجهه تفصد جبينه عرقًا انسحب من أمامها قائلًا:

ـ إن كان أنت لا تريدني لماذا تخدعيني في كل هذه المدة.

لم ترد هي عليه، اقفل عائدًا نحو كوخه وهو يجرجر قدميه بما تبقى له من جهد، أحس بأن آماله قد ضاعت، وتلاشت أحلامه غمغم في حزن وضيق:

ـ اغفر لي يا رب لقد ضقت ذرعًا بهذه الحياة.

كثير ما اشتكى لصديقه، من مضايقة الصبية له وسخريتهم منه كان يقول له وقلبه يتفطر ألمًا وحزنًا:

ـ إيش يقولوا لك عرج خليهم عنك لا تهتم بكلامهم.

ـ وحتى خوي اللي من دمي ولحمي يستعار مني.

ـ أنت ما فيك ما يعيبك خلك منه، وإن كان تبي حاجة أنا صاحبك وخوك في نفس الوقت.

مضت أيام لم يره أحمد، انطلق إليه في كوخه يبحث عنه، طرق الباب عدة طرقات لكن لا حياة لمن تنادي، حدق بعينيه في داخل الكوخ من إحدى الفتحات الصغيرة، يلمح الغرفة التي ينام فيها صديقه مفتوحة الباب، طرق من جديد على النافذة لكن ما من مجيب.

ـ أين ذهب صابر في هذه الظهيرة؟

ـ دفع النافذة بقبضته انفتحت، وما أن أطل منها الصديق حتى هاله ما رأى، اصفرت الدنيا أمام عينيه، أصيب بالذعر

والفزع، صديق عمره جسده معلق يتدلى من السقف، مشنوقًا من رقبته في حبل وتحته صندوق محطم، أسرع الصديق وفتح الباب بقوة وعنف، دخل إلى الكوخ وهو يغمغم رحمك الله أيها الصديق لماذا فعلت بنفسك كل هذا؟

الحاج عطية

يسير من شارع إلى آخر داخل هذه المدينة الصغيرة، وهو يحمل بين جنبيه ثقل الحياة وهمومها، في زمن مضى كان يربح من هذه الحرفة الكثير، أيام إن كانت محلات المدينة معدودة على أصابع اليد الواحدة، ينادي بصوت أجش أتعبه النداء ..

ـ جرد عربي من أجود الجرود.

ـ يدخل سوق الظلام وهو ينادي، لم يلتفت إليه أحد الشباب قال في سخرية وتهكم:

ـ موضة قديمة يا حاج.

يشعر بالحزن والغضب، يقترب منه مواطن يمد له الجرد يتفحصه يبادره متسائلًا:

ـ كم أعطي هذا الجرد الأبيض يا حاج؟

ـ سبعة جنيهات فقط.

ـ وهاذين ثمانية جنيهات مني.

ـ يفتح الله يفتح الله.

يهمس بينه وبين نفسه:

ـ هل تريدني أن أبيعك إياه بخسارة هذا لن يكون، يأخذ منه الجرد يواصل سيره وسط جلبة السوق وأبواق السيارات الحادة، وتكالب الناس على المحلات، شمس الظهيرة حارقة، يجر قدميه في تثاقل، لا أحد يخلصه من هذا الجرد، يشرد بذهنه مع العام الدراسي ومتطلباته الكثيرة لديه تسع بنات وثلاثة أولاد كلهم طلاب في المدارس، لا أحد منهم يدخل إلى البيت قرشًا واحدًا، أنفقت عمري عليهم في التعب والكد حتى غزت التجاعيد وجهي، وأكلتني السنون وابنتي عزيزة المسكينة دخلت العقد الثالث من عمرها، لم أترك فقيهًا إلا وعرضتها عليه، يقولون مرة إن بها سحر وأخرى يقولون معها مس يعطونها الرقية، ويشربونها جالونات المياه التي تتقيأها، يقولون خرج السحر منها، لكن لا تلبث بضعة أيام حتى تبدأ في الشكوى من جديد، لم يتقدم عريس إليها، ما ذنبها حتى تبقى عانسًا هكذا؟

فجأة يعبر الحاج عطية الشارع، دون أن يلتفت إلى سيارة الأجرة المسرعة، تقترب منه صوت يصرخ فيه:

ـ انتبه يا رجل انتبه.

صبي يهرول نحو السيارة التي اصطكت فراملها، وأحدثت صوتًا مزعجًا وهو يهتف: حادثة حادثة.

يزدحم الشارع بالناس، يتعطل السير المارة يتجمعون حول السيارة وهم يتدافعون، كل واحد منهم يريد أن يشاهد الضحية وهم يتساءلون: هل مات الرجل؟

الرجل المسن ينفض ملابسه من التراب وهو يتفصد عرقًا، بعد دقائق انفض المشهد نهض الحاج عطية، والعرق يتفصد منه السائق يمد له الجرد الذي قد اتسخ من التراب، وهو يعتذر له أجابه الحاج عطية:

ـ الذنب ليس ذنبك يا بني، ولكن قدر الله ولطف.

خاطب شاب زميله قائلًا:

ـ لقد نجا الشيخ بأعجوبة.

رحيـل

يرقد على سريره في هذه الغرفة الصغيرة، قد أقعده المرض، أصبح مجرد هيكل عظمي، عينان غائبتان ضيقتان، صدره يعلو ويهبط، قد مات العالم من حوله، يجلس عند رأسه بعض الأقارب والأصدقاء، نظراتهم تبعث على الرثاء، التفت إلى الحاج خليل قائلًا:

ـ والدك هذا من أطيب الناس الذين عرفتهم في حياتي، لم يذكر أحدًا بسوءٍ طوال حياته.

أردف مؤذن مسجد الحطية وأصابعه تداعب المسبحة:

ـ منذ أن عرفته هذا الحاج لم يتأخر عن صلاة الجماعة في المسجد، حتى في الشتاء القارص كنت أجده قد حضر لصلاة الفجر.

أضاف جارنا حمزة:

ـ والدك هذا رجل نزيه عصامي لا يأكل دائمًا إلا من عمل يده، أتذكر إنه بعد أن أحيل على المعاش وأصبح يتقاضى

مرتب الضمان، تحصل على عمل حارس في شركة، فذهب للضمان وألغى معاشه، واكتفى براتب واحد من الحراسة..

في تلك اللحظة لمحت أمي القصيرة القامة، بردائها الباهت تتسمر عند الباب، متسائلة في حيرة وقلق:

ـ كبيف هو الآن؟ اقتربت من أبي المسجى على الفراش تحسست أطرافه تبدو باردة كالثلج، بينما صدره يعلو ويهبط بعد برهة قلتُ لها:

ـ يبدو كما هو يلطف الله به.

ظلت واقفة في ارتباك ظاهر بينما اقترب منه الحاج خليل، وأمسك بقطنة مبللة، وشرع يمسح بها على شفتيه اليابستين.. اصطكت أسنان أبي ببعضها في حشرجة تخرج من فمه يخاطبه الحاج خليل:

ـ تشهد يا حاج تشهد..

بصوت واهن متقطع أخذ يردد:

ـ أشهد أن لا إله .. إلا الله.

ثم توقف نهائيًا عن الحركةِ وأسبل جفنيه، ولفظ أنفاسه الأخيرة.

هتف الحاج خليل في نبرة من الحزن بينما ردد معه الحاضرون:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون.

أطلقت أمي صرخة مدوية على أثرها أقبلت النسوة وشرعنا في العويل والصراخ أمام البيت، سحبت الغطاء على وجه أبي المبتسم، وقد اغرورقت عيناي بالدموع، أحسست بغصةٍ في حلقي وحزنٍ، وبكيت على أبي لأول مرة في حياتي.

مكتوبة

قالت جدتي التي ناهزت العقد السابع من عمرها وهي تحكي لنا بعد العشاء:

ـ تزوجت ثلاثة رجال، أكثر زوج عشت معه سنوات طويلة وأحببته كان العبد الطيب هاشم، كان يحبني كثيرًا ودودًا وعطوفًا، لم أرزق منه بولد أو بنت، حتى مرض ذات يوم ولفظ أنفاسه الأخيرة، ورحل عني وتركني وحيدة أعاني الوحدة والوحشة.

أما أغنى رجل تزوجته في حياتي، وأنا صغيرة لم أقض معه سوى بضعة أيام، وقصته غريبة عند احتلال الطليان لبلادنا نزحنا إلى السلوم، وكنت أسكن مع أبي وأمي وأخي الصغير فوق الطابية في خيمة، بالقرب من نجع معابده، هناك كانت الخيمة تتمايل وسط الريح العاتية، حتى مر ذات عصر يوم من أمام خيمتنا موكب لثلاثة فرسان قالوا إنه حاكم السلوم ومعه حرسه الخاص، كان أبي يومها يحصد في زرع أحد

المعابدة. توقف الفرسان الثلاثة أمام خيمتنا، خرجت إليهم أنا وأخي الصغير، حملت إليهم قدحًا من اللبن اقترب أحد الحراس من أخي الصغير وسأله:

ـ ابن من أنت؟

أجابه: ابن عبد الله المالكي.

كان الحاكم ينظر إليّ ويكاد أن يأكلني بنظراته الزائغة، وهم يمدون له بقدح اللبن الذي تجرع منه عدة جرعات، ثم مده للحارس، ثم مده للحارس الآخر ثم أعادوا لأخي القدح فارغًا، ثم أقفلوا عائدين.

وبعد ثلاثة أيام أقبل أحد الحراس، واقترب من خيمتنا وتوقف عندها، خرج له أبي بادره إن الحاكم يطلب منه المثول بين يديه، ارتدى أبي ملابسه وذهب معه، وتركنا في ذعر وفزع ودهشة واستغراب، ماذا فعل أبي حتى يستدعيه الحاكم؟ لكن غيبة أبي لم تطل، حضر إلينا مبتهجًا مغتبطًا، وعندما سألته أمي أجابها:

ـ حاكم السلوم حسين باشا يبي يناسبنا.

تساءلت أمي:

ـ في من؟

أجابها:

ـ ومن عندنا غير مكتوبة.

تضايقت يومها وشعرت بالحزن، ورفضت بشدة الزواج من الحاكم الذي يكبرني بعشرات السنين، لكن أبي وأعمامي أرغموني على الزواج منه، خاصةً وهو صاحب منصب كبير وجاه ولا يستطيعون رفض طلبه.

كنت يومها صغيرة لم أتم العقد الثاني من عمري، أرسل الحاكم الخراف والتموين لأهلي مع بطانته وحاشيته أقيم لي عرس بهيج أمام قصره الفخم الذي يطل على شاطئ السلوم، ودعت خيمتي الصامدة في وجه الريح، والتي كنت أشاهد القمر من فتحاتها، دخلت القصر مذهولة قصر فخم به العديد من الغرف والثريات الفخمة، نوافذ القصر تغطيها

ستائر حريرية، تفتح بالكهرباء، خدم وحشم بالقصر يأتون لي بكل ما لذ وطاب من أصناف الأكل والفواكه المختلفة، التي تأتي بالطائرة من الإسكندرية، أما غرفة نومي فهي فخمة لم أرَ مثلها في حياتي، وستائرها حريرية، أشعر بالخوف والفزع عند فتحها أو إغلاقها من قبل الخادمة، ودولاب ملابسي به أرواب عديدة وفساتين جميلة، لكن كل ذلك لم يبهرني كثيرًا فأنا فتاة بدوية أعشق البادية والصحراء والرعي بالماعز، ومطاردة الجرابيع وشوي القعمول، أما هذا القصر بالنسبة إلي فهو سجن مرعب، مع المساء كان زوجي يداعبني ويلاعبني، كان دائمًا يسألني:

ـ ما هي أخبارك يا صغيرتي، ماذا تريدين؟

بالرغم من ذلك كنت أكرهه وأكره العيش معه، ذات يوم جاءني وأخذ يملي علي تعليماته:

ـ لا تتحدثي مع الخدم، ولا تختلطي بهم، ولا تأكلي معهم فأنت سيدة القصر..

ولكن كل ذلك أنساه بعد ذهابه إلى عمله خارج القصر، وأضرب بتعليماته عرض الحائط، أخالط الخدم، وأذهب معهم إلى الشاطئ، وأسبح معهم في البحر، وعندما يصل القصر كانوا يخبرونه بكل ما فعلته، وعند زيارة أمي لي في القصر يقابلها الحاكم قائلًا في غضب:

ـ ابنتك هذه لا تصلح زوجة لي يا مكاسب.

ـ تبادره أمي ببساطة:

ـ إن كانت لا تصلح طلقها يا سيدي.

تكرر الأمر عدة مرات وبعد أن تعب معي أرسلني إلى أهلي عدت إلى خيمتنا، وأنا أكاد أطير من الفرح كعصفور قد تحرر من القفص، لكن أبي توجس خيفة وأصبح منزعجًا بعد طلاقي من حاكم السلوم، وبدأ عليه القلق وقرر بيع الخيمة التي كنا نقيم فيها، وشد الرحال والعودة إلى وطننا وضعنا متاعنا على الحمار حملت أمي طفلتها على ظهرها وأبي يمسك بالحمار في المقدمة نصعد حجاج السلوم نحو الغرب مشيًا على الأقدام.

وأخي يسير خلف الحمار وهو يسمعنا أنغامًا شجية بمزماره، وبعد ساعات كنا نجتاز الاسلاك الشائكة وقد لاحت لنا من بعيد ثمة بيوت متناثرة، ورائحة الوطن، ها قد عدنا إليك يا وطني.

الصحوة

ـ ماذا تعمل في بلادك؟

قالتها دون تفكير لمجرد تبديد الصمت فأجابها بسرعة دون افتعال:

ـ مدير شركة نفطية.

اضطربت قليلًا أمام هذه الإجابة السهلة وتلألأت عيناها ببريق ما، فراحت تحاول ابتلاع ريقها لتلفظ سؤالها التالي:

ـ وكم مرتبك؟

كان يلاحقها بطرف عينه فدفع إليها بالإجابة مرة واحدة وبلا تحفظ وتمهل:

ـ ألفان من الدينارات ...

ازداد البريق في عينيها كأن الأرقام المئوية التي سمعتها أضافت إلى هذا البريق أضعافًا نتيجة عملية ضرب سريعة آلية وانفرجت شفتاها تستجمع الكلمات.

ـ يا له من مبلغ لابد أن السعادة ملء جيوبك وجفونك.

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وافتعال ابتسامة واضحة أما هو فقد خرج من حيز المكان وشرد بفكره بعيدًا همس ربما لنفسه أكثر مما قصد أن يخاطبها:

ـ من أين تأتي لي السعادة وأنا لم أعرف لها طعمًا أو معنى في حياتي.

انحسر فستانها أكثر من فوق الركبة نقلت معنى الإغراء إلى عينيها تلقائيًا، امتدت يده تصب مزيدًا من النبيذ في كأسها، حدق أكثر في وجهها الذي يبدو خلف سحاب دخان سيجارة، كأنه مجموعة من ألوان الطيف لتباين المساحيق فوقه، ولكن حملقة عينيه لم تفلح في سحبه بعيدًا عن أفكاره وهمومه التي تعايشه منذ سنوات، لم تكد تغيب أبدًا عنه لحظة واحدة، حتى وهو في أهنأ لحظاته مع جليسته هذه التي لم يتعرف إليها إلا في هذه الشقة منذ أيام قلائل، تصور وهو يدخلها إنه فارق على بابها كل همومه وأحزانه، ولكنها ها هي

تلح عليه في لحظات أنها لحظات النسيان الكثيرون يشربون لينسوا، أما هو فإن الشرب يزيده تذكرًا يقوي ذاكرته، يعود به إلى أيام من المفروض أن يطويها طي النسيان ويحكم الزمن وحده، إنها أيام طفولته وصباه.

عندما كان والده يوفر له كل احتياجاته، نصائح والده تمر حرفيًا كأنها المسجلة على الشريط التي تديره الآن بائعة الهوى التي تجلس أمامه، لكنه خيب ظنون والده صار يهرب من المدرسة كأنه طفل صغير، تكرر هروبه ورسوبه وأحس بالارتياح عندما قررت المدرسة فصله نهائيًا.

ولم يكد ينال من ارتياحه إلا نظرات الحسرة وخيبة الأمل التي كانت تشع من عيني أبيه، أما أمه فقد بدا وكأن الأمر سواءٌ بالنسبة لها، فأخذ يستدرجها حتى سمع منها العبارات التي كان يحتاجها، كلمات قليلة من بين كلام كثير، لكنها كانت كافية لأن تجعله يتغلب على القلق الذي زرعته نظرات والده في أعماقه، في الحقيقة كان في مسيس الحاجة للتغلب

على هذا الشرخ في محيط البيت، ليواجه كسرًا يوشك أن يدمر حياته ويعصف بكيانه.

إن دقات قلبه مصدره البيت المجاور، زهرة بالتحديد إنه يحبها وقد عذبه حبها وضايقه، وأثقله بأضعاف ما فعلت فيه المدرسة، ومع ذلك ظل يقترب من بيتها في الوقت الذي يبتعد فيه عن باب المدرسة، تمنى أن يظل محدقًا في عينيها السوداويين ووجهها الأبيض الجميل، أضعاف أمنيته في أن يعفيه الله من معاناة النظر في وجوه المدرسين، طالما أحس أن القلم الثقيل الظل خفيف في يده، وهو يشرع في الكتابة إليها لكنه وفي كل مرة وعبر ارتعاشة القلم في يده، تبرز أمامه الحقيقة المرة أنه فاشل بلا مستقبل، وزهرة معبودته مثل غيرها من الفتيات تريد أن يكون لها رجل له مستقبل، إنها لا تكاد تحس به ومجرد إحساسها به يعتبر طيشًا ونزقًا، إنها لم تحاول مجرد النظر إليه أو التحديق فيه، مثلما يحدق الإنسان في أي شيء عرضًا يمر به، إسراف في عدم الإحساس أو

القسوة، لعل حبها له يبني الكثير يضعه على طريق المستقبل من جديد، يمده بطاقة بدفقة حياة يجتاز بها كل العراقيل.

ولكنها لم تفعل لعله استعجل، لا لطالما طارد خيالها من فوق الأسطح وعبر النوافذ الضيقة والشرفات، وفي الطريق كل طريق عرفته، ولأنه صار حارسًا بسيطًا في إحدى الشركات قد تكون سخرت منه، وهو يرتدي بذلة الحارس الخاصة بالوظيفة، وعند هذا الحد اهتز رأسه عدة مرات بعصبية، وكأنه يريد أن يدفع عنه المزيد من المعاناة المتجددة، بائعة الهوى التي تجالسه غمزت بعينيها ودار إبهامها وسبابتها في حركة مفهومة، فعكست ملامحه بعض الضيق، لكنه أسرع دونما تفكير، يخترق طريقه إلى حيث يوجد معطفه الذي يحمل حافظة نقوده، والتي دس فيها كل راتبه، بل وتحصل على سلفة ثلاثة أشهر مقدمًا من عمله، حاول والده نصيحته بأن يتزوج، ولكن ممن يتزوج، وكل ما معه لا يكفي إشباعًا لهم والد أي عروس، فضلًا عن أحلامه التي لم تطاوعه في

قبول أو تصور غير زهرة شريكة لحياته، امتدت يده تعبث في جيب بدلته، لكن مظروفًا وقع في يده هَمَّ بأن يعيده لولا أن وجده مغلقًا، فتحه في تمهل جرت عيناه على السطور:

حبيبي:

ـ فتحي أقولها لك بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى لأول مرة ولعلك تستغرب تجاهلي لك فقد كان مجرد اختبار لمعرفة مدى صدقك في حبك لي، ولعلك تتساءل كيف استطعت أن أضع هذه الرسالة القصيرة، في جيب جاكتك التي جاءتني بها السيدة والدتك لأخيطه لك، فخلسة وضعت رسالتي هذه فيه، لعلها تصلك وهاأنذا أبوح بحبي لك، وأتمنى عودتك سالمًا أنا في انتظارك.

زهرة.

أحس بالفرح يغمره لأول مرة، وهو لا يكاد يصدق عينيه، هذه القاسية التي كان يتمنى منها ولو ابتسامة، ها هي تعترف له بحبها بل وتمنحه قلبها، كم هو في غاية الغبطة

والانشراح، كان بالأمس تائهًا ضائعًا، واليوم شعر بالوعي يعود إليه، اقتربت منه بائعة الهوى أحس بأنفاسها المضطربة، لم يعد يحس برغبة إليها، أو بأي شهوة نحوها.

ـ إن كنت لا تريدني أعطني أجري.

ـ شعر بدمه يغلي وشرر الغضب يتطاير من عينيه، ومد لها ورقة المائة جنيه مصري وهو يصرخ فيها:

ـ هيا اغربي عن وجهي ....

♦ وفي اليوم التالي كان يودع رفيقه ويضع حقيبته في سيارة الأجرة، بينما رفيقه يرنو إليه في دهشة واستغراب، يلوح له وقد أقلعت به السيارة وأيقظته تلك الرسالة من سباته العميق، فهو في شوق لمحبوبته الجميلة وحنين لأهله ووطنه.

لحظة غضب

مع إشراقة شمس الصباح، هرول المواطن الصادق، نحو تلك المبنى العتيق ظل ينتظر أمامه بالساعات، حتى فتحت أبوابه الموصدة، صعد إلى أعلى الدور الثالث، ودخل على الموظف المسئول بادره متسائلًا عن المدير أجابه قائلًا:

ـ عليك بالانتظار المدير لم يحضر بعد ...

ظل ينتظر على الكرسي، وبعد ساعة حضر المدير ببذلته الأنيقة، يمشي الهويني بطنه تتدلى أمامه وعيناه متورمتان، وسائقه الخاص يتبعه كظله، وبيده مفاتيح السيارة الفخمة والحقيبة السوداء أوصد الباب خلفهما، وبعد أن خرج السائق دخل عليه الصادق، قدم له الطلب الكتابي نظر إليه المدير بكبرياء متسائلًا:

ـ ما حاجتك؟ بادره بتلعثم:

ـ لي أسرة كبيرة بحاجة إلى سكن فالكوخ الذي نقطنه لا يقينا برد الشتاء ولا حر الصيف...

وبلا مبالاة ودون أن ينظر إلى طلبه الكتابي أجابه المدير:

ـ وهل تراني الآن أوزع الشقق والبيوت السكنية..

ـ لا ولكن أنت مدير الإسكان والمرافق.

ـ هيا اغرب عن وجهي ولا تضيع وقتي.

عند ذلك استشاط الصادق غضبًا، تقدم نحو المدير بعصبية ووجد نفسه يهجم عليه، ويكيل له اللكمات حتى تطايرت الأوراق التي أمامه، وسقط المدير من على كرسيه، وهو يصرخ ويستغيث في ذعر وفزع أخرجوا هذا المجنون من هنا.

حكاية من العقيلة

الخيمة تتلاعب بها الريح، وبداخلها طفلة جائعة تنوح، الأم حائرة لا تدري ماذا تفعل .. الأب عندما اشتد غضبه وأظلمت الدنيا أمام عينيه، قفز مهرولًا نحو الخلاء، حيث تراءت له الخيام في أشواط بداخلها كتل بشرية بين الحياة والموت، خيام لا تعد ولا تحصى، مزروعة وسط صحراء قاحلة وكثبان رملية .. عند نهاية كل شوط من الخيام تنتصب المشانق تبعث الذعر والهلع في القلوب، خيام محاصرة بالأسلاك الشائكة، والجند المدججون بالسلاح المنتشرون هنا وهناك، ما إن ابتعد عن شوط من الخيام حتى تسمر مكانه، من هول ما رأى رجل طويل كالنخلة السامقة، بلون الليل، كان بين يديه سوط يلهب به ظهر عجوز، يصرخ في وجهها وهي تتأوه وتتألم: هل تتأخرين مرة أخرى أيتها الشمطاء؟ كان يجلدها بالسوط في قسوة وعنف، واصل سيره، بعد خطوات اقترب من خيمة مهترئة،

أمامها يقف رجل مسن، وهو يبكي حظه السيء ويومه التعس، وهو يردد .. (وين الغالي يا دار ...) تركه ومضى في سبيله وتمتم قائلًا:

ـ أمثالك كثر بداخل هذا المعتقل، من الذين أضاعوا عقولهم وفقدوا صوابهم واصل سيره ألتقى بشيخ مسن كانت تبدو عليه كآبة ولاسيما الأسى بادره قائلًا:

ـ هل أنت مريض أيها الشيخ؟ أجابه في حزن وكآبة:

ـ (ما بي مرض غير دار العقيلة وحبس القبيلة، وبعد الجبا من بلاد الوصيلة). اتجه نحو الأسلاك الشائكة والجوع يمزقه، ما إن لمح جربوعًا يمرق أمامه، حتى قفز يهرول خلفه وهو يهتف به:

أين تهرب مني أيها الجربوع؟ سرعان ما تحفز اليربوع ودفن نفسه في حفرته، واختفى تحت الأرض في نفق طويل.

عثر الرجل على قطعة حديد، شرع يحفر بها ويزيل التراب بيديه .. عندما أحس بالتعب والإرهاق، انتصب

واقفًا، وهو يمسح العرق الهابط عن عينيه، والتفت يمنة ويسرة وهو يغمغم:

ـ الكلاب صادروا كل شيء في المعتقل لم يدعوا لنا ما نقتات به .. انخرط في مواصلة الحفر، وإزالة الأتربة، وما أن وصل إلى نهاية النفق حتى كان الجربوع ينزوي مرتعشًا، قبض عليه بيديه كانت بطنه بيضاء وعيناه يقظتين، وشارباه يرتعشان ابتسم الرجل وهو يتمتم: يا لك من صيد ثمين ووجبة دسمة.

ما أن هم يستدير به إلى الخلف، حتى أحس بعقب بندقية يسدد بين كتفيه، بقسوة التفت إليه كان أحد الحراس «المصوع» بادره الحارس في غضب:

ـ تحاول الهرب أيها الحقير أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدي ..

ضربه بإخمص البندقية على كتفه بقسوة وعنف، حتى سقط اليربوع من بين يديه، وما إن وطأت أقدامه الأرض

حتى أطلق ساقيه للريح، واختفى هناك خلف الأسلاك الشائكة، صرخ في وجهه الحارس من جديد:

ـ لابد من معاقبتك أيها القذر.

ساقه أمامه نحو «كابو» المعتقل بينما الرجل يردد أبيات ذلك الشيخ العجوز الذي شنقت ابنتاه أمامه في المعتقل.

«ما بي مرض غير دار العقيلة .. وحبس القبيلة .. وبعد جبا من بلاد الوصيلة».

المهمة الخطرة

بعد وجبة عشاء مكونة من مكرونة وقليل من اللحم المستورد وعلبة العصير .. كلفت أنا ورفيقي المستجد بمهمة استطلاعية سيرًا على الأقدام. كل واحد منا يرتدي بزته العسكرية وفوق رأسه خوذته الحديدية، وبيده سلاحه ومعنا جالون الماء الصغير، كنا نسب ونلعن حظنا السيء التعس، الذي رمى بنا في هذه القرية الحدودية، التي يكثر فيها التهريب والهجرة غير الشرعية. أحكمنا قبضاتنا على سلاحنا .. شرعنا في السير كأشباح في الظلام .. لا شيء يبدد هذه العتمة والرتابة والجو الموحش، سوى تجاذب أطراف الحديث مع رفيقي.

قصصت عليه حكايتي مع فتاتي الحسناء، التي ودعتها هناك في المدينة الغافية على ساحل البحر، وكيف بالأمس أهدتني وشاحها الوردي المعطر، وهي تقول لي:

ـ خذ حذرك من الأفاعي والعقارب فهي كثيرة في الصحراء..

كما سردت لرفيقي قصة أبي المزهو بي دائمًا، والذي عندما يراني يفاخر بي بين أقرانه قائلًا:

ـ هذا هو أبني (الجمل) كما ترون! كان يلقبني بالجمل لطول قامتي..

لا شيء سوى هذه الصحراء المترامية الأطراف، والليل الخريفي يتمطى بارتخاء، ونباح الكلاب وأضواء سيارات المهربين، مددت يدي إلى جالون الماء، وتجرعت منه عدة جرعات .. بعد أكثر من ساعة ونحن نسير .. أحسست أننا تقدمنا أكثر من قبل .. شجيرات المثنان الكبيرة في هذه الأراضي المهجورة. أشعلت المصباح الصغير الذي كان بحوزتي، دبت القشعريرة في جسدي، هتفت برفيقي في ذعر ورعب، عندما لمحت تلك الأقراص الدائرية قلتُ له:

ـ لقد وقعنا يا رفيقي في حقل ألغام. تساءل في جدية وقلق:

ـ وما هو العمل إذن؟

طلبت منه ألا يتقدم خطوة واحدة، وأن يحفر تحته حفرة، ويجلس مكانه امتثل هو لذلك وفعل ما أمرته به .. بينما نزعت حربة البندقية من الغمد .. وشرعت أحفر بها تحتي.

جلسنا وهضاب من الخوف تخيم علينا .. كل واحد منا لا يدري ما يخبئه له القدر وسلاحه إلى جواره .. الليل يمضي بطيئًا ثقيلًا .. الماء يكاد ينفد بعد ساعات ترامى إلى أسماعنا هدير سيارة كانت تقترب منا ..

وضع صديقي أصبعه في فمه وشرع يصفر لها، لعل ذلك المهرب يسمعه .. ثم أخذت بندقيتي وصوبت فوهتها إلى أعلى، وأطلقت عدة رصاصات في الهواء، لكن هيهات أن يفطن لنا ذلك المهرب، أو ربما فطن لنا فاستدار بسيارته إلى الخلف خائفًا مذعورًا، واختفى في جنح الظلام ...

بدأ هدير السيارة يخفت شيئًا فشيئًا حتى تلاشى تمامًا ..

الموت كامن على بعد خطوات منا .. برز فجأة شعور بالخوف والفزع. أسنموت وسط حقل الألغام هذا؟

أحسست بالبرد القارس، تحسست حذائي الأيسر ونزعته ووضعته تحتي في تلك الحفرة ما إن مددت رجلي على الأرض إلى الإمام، حتى دوى انفجار مروع هائل، حمل معه الغبار والتراب، لم نفطن لأنفسنا إلا بعد برهة، حيث أحسست بحرارة في جسدي وطنين لا يفارق أذني، لم أعد أرى رفيقي، سائل ساخن ينحدر على خدي من إحدى عيني، وكأنها قد خرجت من مكانها، ألم حاد في إحدى رجلي، بعد أن صحونا من الإغماء غمغم رفيقي فقد كان على قيد الحياة .. لكنه هو الآخر لم يعد يرى شيئًا ما هذا الكابوس الفظيع. هل أنا في حلم أم ماذا؟

بعد ساعة استرجعت أنفاسي، أحسست بآلام حادة وفظيعة في ساقي الأيسر، والذي كان قد بتر، ورفيقي هو الآخر يغرق في دمه، أخذنا نقاوم بصعوبة بالغة الألم والظمأ .. يصل إلى أسماعنا نباح الكلاب بين الحين والآخر، وما أن أحسسنا بحرارة الشمس تطل علينا حتى تناهى إلى

أسماعنا هدير سيارة، أخذت تقترب منا بعد ليلة طويلة من العذاب وسط الجحيم وها هي أصوات وجموع بشرية تقترب منا.

العوسجة

ـ لا أدري كيف طاوعتك أيها العجوز؟ تساءلت بينك وبين نفسك وأنت تدفن نفسك في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وهي تغفو إلى جوارك، وقد أنهكها السفر والتعب المضني، الركاب يخلدون إلى الصمت، بينما السيارة تسابق الريح على الطريق الثعباني الطويل متجهة نحو الغرب رددت بينك وبين نفسك:

ـ لقد أغدقت هي علي بحنانها ودفئها، هجرت أولادها من أجلي، دللتني في بيتها، عشت بين أحضانها كأمير متوج، مودعًا ليالي الحرمان والجفاف في ذلك المعسكر القاحل، والخبز اليابس والأوامر التي لا تنتهي، كانت تشتري لي الدخان والملابس الجديدة ..

تتذكر كيف كنت تقبع مع أسرتك في الغرب، وكيف التحقت بالعسكرية وأنت صغير السن بسبب الفاقة والفقر المدقع، حتى فوجئت ذات يوم بأن معسكرك سينتقل

إلى مدينة نائية في أقصى الشرق. ومضت سنوات نسيت خلالها أهلك هناك، حتى هبطت عليك فجأة أمك وهي تفتش عنك في هذه المدينة الصغيرة، ألست أنت فلذة كبدها؟ ما أن عثرت عليك حتى أخذت توبخك في حزن وغضب مرددة:

ـ ماذا تفعل مع هذه العوسجة الكبيرة؟ أنت يا بني مازلت في ربيع الشباب، وتحتاج إلى من يحمل اسمك من بعدك ويسند ظهرك عد معي لنزوجك من أصغر فتاة عندنا.

وظلت تنهال عليك بنصائحها ومواعظها حتى أقبلت زوجتك العجوز كانت عند أحد أقاربها، وفوجئت بأمك أمامها حتى دخلها الرعب والفزع، لكنها احتضنتها في ترحيب مصطنع، ربما هي قادمة للزيارة فقط، لكنها نذير سوء بالنسبة لها.

ولم تمض ساعات حتى كانت أمك تلملم أشياءها، وتنهض مقررة السفر والعودة، وأنت تنسحب خلفها

كالطفل الرضيع، وزوجتك تودعك عند الباب، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تهتف بك:

ـ إذا طالت غيبتك هناك لا تنسَ أن ترسل لي بورقة الطلاق ...

الوجه الآخر

في صمت الشوارع المتربة، تمارس الأقدام سيرها نحو هذا الفندق الغافي في ذلك اليوم الخريفي، ودخلت وسط هالة من الصمت والدفء اقتربت من موظف الاستقبال، سألته عن المدير .. أبلغك أنه لم يحضر، بعدها اتجهت نحو صالة الانتظار .. ارتميت على مقعد وثير .. رنوت ببصرك نحو تلك اللوحة لبدوية حسناء ترتدي الرداء الحريري الزاهي الألوان، كانت ترمي العجين في التنور، بعد لحظات أطل من الباب الزجاجي رجل أنيق الهندام، يرتدي بذلة رصاصية، ويحمل حقيبة سوداء، هذا الوجه ليس بغريب عنك حملقت فيه:

ـ أليس هو؟ لكن من أين هبطت عليه كل هذه الوجاهة والثراء مرة واحدة؟ وينزل في هذا الفندق ذي الخمس نجوم، بعد أن كان يقطن تلك «البراكة» من الصفيح ويعجز عن تسديد الإيجار الشهري للحاجة عائشة، والذي كان لا

يتجاوز عشرين دينارًا لا .. إنه ليس هو .. «يخلق من الشبه أربعين» لكن لنقطع الشك باليقين، نهضت من على المقعد هتفت باسمه بصوتٍ عالٍ:

ـ كيف حابلك يا علي؟

التفت إليك ومد أطراف أصابعه وهو يبتسم قائلًا:

ـ أهلًا صالح أهلًا.

ثم انسحب وتركك ماضيًا إلى حجرته، عدت من جديد إلى مقعدك، وقد شعرت بتأنيب الضمير على وقوفك له وترحيبك به، ما كان لك أن تهتم به، جاءك موظف الاستقبال وهو يهتف بك:

هل عرفت هذا الرجل؟

بادرته قائلًا:

ـ كيف لا أعرفه إنه كان يسكن إلى جواري في براكة صفيح في الحطية بالإيجار.

ابتسم موظف الاستقبال قائلًا:

ـ اليوم حول من طريقه، تزوج من ولية غنية جعلت منه رجل أعمال ومدير شركة كبيرة.

بعد دقائق وصل مدير الفندق دخلت عليه المكتب، ما إن رآك بادرك بقوله:

للأسف لا توجد لدينا وظائف شاغرة.

قصة من البريقة

ها أنت ذا تجرجر قدميك وسط الرمال اللافحة، داخل المعتقل الذي يكتظ بآلاف المقهورين والمعذبين الجوعى ..

ولدت وسط أزيز الطائرات، ودوي المدافع، وهدير القنابل وزحف جحافل من البرص الأوباش نحو بلادك .. لم تعد تخشى شيئًا يومًا في حياتك، فقد تجرعت البؤس والشقاء والحرمان والجفاف، وأنت لم تكمل العقد الثاني من عمرك تمشي وسط هذا المعتقل تبدو مثل القط المذعور تتلفت يمينًا وشمالًا، تتراءى لك أشواط الخيام المتناثرة، داخل السياج الذي يمتد لمسافات كبيرة في الأرض السبخة، تصل إلى أنفك روائح الجثث المتفسخة، وتضع يدك على أنفك في ضيق.

شيخ مسن مررت به كان يطارد أسراب النمل، ويختطف منها حبات الشعير المحدودة، ثم ظل ينفخها بفمه وهي بين كفيه من أجل أن يطعم بها صغاره يا له من جوع قاهر وعدو

جائر، عند نهاية الأشواط كانت ثمة امرأة متقرحة الشفتين، وعند قدميها طفل صغير لا يتجاوز الخامسة من عمره يتشبث بها، وهو غارق في دموعه وصراخه من الجوع.

اقتربت منه وحملته بين يديك ووضعته على صدر أمه المصلوبة، التي كانت تهتف بك:

ـ فك قيدي حتى أستطيع إرضاعه.

اقتربت منها وفككت أغلالها، وما إن ألقمت الطفل الثدي حتى التهمه في شبق ونهم، وكف الطفل عن الصراخ، وعندما أردت أن تسألها عن عقوبتها، لم تفطن حتى كان ذلك الأبرص، يلهب ظهرك بالسوط اللاذع وهو ينهرك في غضب:

ـ سوف أصلبك مكانها أيها الأحمق.

انتهت ..

المرأة في قصص مقبولة

بقلم د/ بهلول أحمد سالم

المرأة صنو الرجل وآخره الشاغل عليه عقله وحياته، ملهمته وسكنه ومودته، تسعده وتشقيه، طالما استدرجته إلى جانبها فمنحها رعايته وعنايته وحبه، ففرضت عليه نظمًا اجتماعية وأنماطًا سلوكية، حددت طبيعة وحدود التعامل معها، فبالغ في الاهتمام بها اهتمامًا يتناسب طرديًا، ودورها الفاعل في واقعه الإنساني المعاش، فراح يستلهم ذاتها وواقعها، ويستنبط عالمها الخاص في تشكيل ملامح صورتها وطبيعتها الأنثوية، ومن ثم تحديد دورها في توجيه فكره ومشاعره وسلوكه تجاه الآخرين من أبناء مجتمعه.

وقد عنى الأدباء على وجه خاص بالمرأة في أعمالهم الإبداعية، واستقوا منها ومن عالمها مادة غنية لبناء نصوصهم وتوجيه مضامينها وأهدافها، والمالكي بوصفه أديبًا يكتب

القصة القصيرة، وينتمي إلى بيئة اجتماعية (المجتمع الليبي) ذات ملامح جغرافية وسكانية وأيديولوجية متميزة، شغل نفسه هو الآخر بالمرأة، فاخترق عالمها وعايشه بمشاعره وفكره، فاهتم بالمرأة في باكورة أعماله الإبداعية، عبر تقديمه نماذج إنسانية متباينة للمرأة العربية الليبية، كما شكلتها طبيعة الحياة الصحراوية الحديثة، وحددت ملامحها الظروف الحياتية في النصف الأول من القرن العشرين، حيث انعكست طبيعة الواقع وظروفه وإيجابية الموقف الذاتي للقاص على آليات وتقنيات الفن القصصي وخصوصيته، فأنتج لنا مجموعة قصصية حملت من بين شواغلها تصورًا متعدد الأبعاد والملامح للمرأة الليبية، وجدلية علاقتها وموقفها من الواقع المعاش، ودورها في تشكيل هذا الواقع وحدود فعلها فيه وموقفها منه.

وفي سبيل الاستبطان الفني لمجموعة المالكي القصصية الموسومة بـ «مقبولة» لتحديد ملامح صورة المرأة فيها، نجد

أنها تعكس مدى تأثير العادات والتقاليد والقيم والنظم الاجتماعية، على أيديولوجية المالكي وأنماط تناوله لواقع المرأة وطريقة معالجته لدورها الاجتماعي.

وما «مقبولة» في ظني إلا رمزٌ أنثوي متعدد الوجوه، ومتباين الأقنعة يمكن الاتكاء عليها للولوج إلى عوالم اجتماعية سائدة، تعاني منها المرأة العربية وخاصة الريفية، ويبدو لي من خلال قراءة عنوان المجموعة القصصية «مقبولة» أن وراءه مغزى قصده القاص، الذي وضعنا باختياره لهذا العنوان أمام تساؤل مثير أولًا وهو: لماذا مقبولة؟

ولكن سُرعان ما تزول الدهشة التي رسمها العنوان، ويرسمها على وجه القارئ عندما تقع عيناه على أولى القصص في هذه المجموعة، ليجد أن المرأة قد قامت بدور الشخصية المحورية فيها، وهذا ينم عن اتجاه نفسي وتحول لدى القاصِّ نحو المرأة وعن نزوعه الفطري إليها وميله نحوها، وهذا يتأكد لنا من اختياره لمقبولة لتكون عنوانًا لمجموعته

القصصية التي تناقش مجموعة من القضايا الإنسانية والاجتماعية والقومية المعاصرة، علاوة على ضم المجموعة لقصة العنوان نفسه تقع واسطة العقد بين التسع عشرة قصة التي حملتها، والتي قدم لنا الكاتب من خلالها صورة للمرأة المغبونة التي جنت عليها التقاليد الاجتماعية والأعراف القبلية والأسرية، فسلبتها حريتها وإرادتها وأوقعتها أسيرة رأي الآخر (ولي الأمر)، وفكره وإرادته، فجاءت صورة مغايرة لطبيعة العلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة، وقد تكرر هذا النموذج السلبي لحياة المرأة بدرجات متفاوتة في العديد من مجتمعاتنا العربية وخاصةً البدوية والريفية منها، كما أشرنا سالفًا، حتى وقت قريب من حياتنا المعاصرة.

وقد قدمت مقبولة نموذجًا مأسويًا للفتاة الصغيرة التي سلبتها النظم الأسرية والأعراف الظالمة حقها، في اختيار زوجها في حالة تقاليد الزواج العمياء بينها وبين التمتع بصباها وشبابها، لتجد نفسها مجبرة على الزواج من شيخ يكبرها

بعشرات السنين، فجاء هذا الزواج ليطفئ شمعة الأمل التي تستشرف بها المستقبل في عينيها، وحرمها فرصة الفوز بقلب حبيبها الذي تهواه، والذي طالما رمت بها الأماني والأحلام في عوالم من السعادة والبشرى معه، ولكن ما حيلتها وقد قطع أبوها بتسلطه وجبروته أمر زواجها مع الحاج «معتوق»، الذي مَنَّى نفسه بفتاة تعيد إليه صباه وشبابه، وأمام هذا الواقع الأسود المأساوي الذي عجزت مقبولة عن تقبله أو التعامل معه، لم تجد أمامها بُدًا من أن تضع حدًّا لتسلط الآخر عليها، فنجحت للمرة الأولى في امتلاك إرادتها التي سلبتها إياها الأعراف الظالمة، فلم تجد سبيلًا للخلاص إلا أن ترمي بنفسها في البحر لتموت غرقًا، فتكون هذه النهاية الحزينة القاتمة هي القرار الوحيد، الذي استطاعت امتلاكه مقبولة وتملكه دون أن يحجر عليها أحد أو يسلبها أحد هذا الحق، ويعد هذا الموقف بمثابة إعلان للثورة والتمرد والرفض لنظم مجتمعية، توارثتها الأجيال وعانت منها المرأة ردحًا من الزمن.

وقد طالعنا القاصّ بنموذج آخر للمرأة ولكنه نموذج مقيت يرفضه المجتمع الذي ساعد هو نفسه علي ظهوره، وكذلك قصة مكتوبة التي أعطاها والدها للحاكم الذي يكبرها بعشرات السنين وكانت ترفضه وانتهى زواجهما بالطلاق وأيضًا قصة (الصحوة) يعري القاص سلبية اجتماعية، ومنقصة أفرزتها ظروف نفسية واجتماعية خاصةً عبر تقديمه لنموذج المرأة الساقطة (بائعة الهوى)، التي في الغالب دفعتها ظروف أسرية واجتماعية إلى احتراف الرذيلة، وبيع المتعة لمن يرغبها ويملك ثمنها، تلك المرأة التي وجد فيها «فتحي» (الشخصية المحورية) سلواه وملاذه الآمن الذي يبدد فيه ألمه وشجونه، ويبثه همومه وشكواه بعد أن استبد به اليأس، وامتلكه الهم لتجاهل رفيقه صباه وحبه «نواره» له، تلك المرأة التي تمثل الطهر والعفة والنقاء على الجانب الآخر للمرأة الساقطة، وبين هاتين توزعت مشاعر «فتحي» وجسده، ففي الوقت الذي رمى جسده بين أحصان

الفاحشة واللذة المحرمة، ترك مشاعره وقلبه خلفه مع محبوبة تظاهرت بإهمالها له رغم حبها الشديد، مما دفعه إلى الرحيل بعيدًا عنها لعله يشفى من حبها فالتقطته بائعة الهوى، بوصفها معادلًا أنثويًا تطلع فتحي إلى أن ينسيه محبوبته «نواره»، فظل يمتح من بئر الشهوة الآثمة دون أن يشفى، إلى أن وقعت عيناه على رسالة دفنتها «نواره» منذ أيام في جيب سترته، عندما حملتها أمه إليها لتصلح ما بها، ولكنه لم يعثر عليها إلا بعد رحيله للأسف عن محبوبته، فيقرأ فيها اعتراف «نواره» بحبها له، وأنها ما تجاهلته إلا لتختبر صدق حبه وطهر مشاعره، ذلك الاعتراف الذي أعاد «فتحي» إلى رشده، وطهر قلبه من أدران الخطيئة وأوحال الشهوة الآثمة، فيستفيق من غيه عائدًا إلى حبه الأول الطاهر «نواره».

وفي الوقت الذي نجح فيه المالكي في تقديم نموذج للمرأة الممتهنة مسلوبة الإدارة، والتي ظلمتها ظروف المجتمع وأغرقتها في أوحال الشهوة الآثمة، وكذا نموذج

المرأة القادرة على الفعل والتأثير في الآخر وتشكيل فكره وتحريك دوافعه وسلوكه، فإنها في قصص المالكي تمثل أنموذجًا آخر للقسوة والجفاء والتسلط فهي كما حدد القاص ملامحها في قصة (الضحية)، وتبدو امرأة غليظة الطباع جافة المشاعر قاسية القلب، ظالمة تدفع من يهواها دون رحمة أو شفقة، (وهذا يناقض ما جبلت عليه المرأة)، على التخلص من حياته بعد أن غرست بيدها أغصان اليأس في قلبه، فقابلت الحب الصادق بالبغض والاستهزاء والسخرية، ذلك النموذج الأنثوي المتسلط تمثله «زهرة» تلك المرأة التي أحبها «صابر» حبًا شديدًا أنساه سخرية الآخرين منه، واستهزاءهم به لعرج أصابه، ومع ذلك نراه يرحل بفكره ووجدانه عن عالمه المعيش القاتم، بازدراء الآخرين له إلى عالم بل عوالم من السعادة المتخيلة في جوار «زهرة»، ولكنه لم يحقق من ذلك شيئًا وإذا به يصطدم بمرارة الواقع الأليم برفض زهرة الساخر لطلبه (الزواج منها)، ولم تكتفي

بالرفض بل راحت تمعن في إذلاله والتهكم عليه، ومعايرته بعرجه فتسرب الأمن من بين عينيه، مما دفعه إلى الانسحاب من الحياة ورفضها بعد أن انقطع آخر خيط يربطه بها.

ويضاف إلى هذه النماذج التي حملتها مجموعة المالكي القصصية للمرأة المعاصرة وموقفها من الواقع، وموقف الآخر منها وعلاقتها به، فإن القاص قدم لنا عبر قصصه أنموذجًا آخر للمرأة: تردد كثير في أعماله الإبداعية كغيره من المبدعين المعاصرين ألا وهو نموذج (المحبوبة) بوصفها باعثة الأمل في نفس الرجل، مداعبة لخواطر ومشاعره تبادله حبًا بحب تتدلل عليه وتضنيه بهجرها، تعشقه كما يعشقها تشقيه وتسعده، يسعى إليها وتتمناه، يرضى لقربها ويغضبه هجرها، بين هذا وذاك يقف منها الرجل وتقف منه وتحدد طبيعة العلاقة بينهما.

ولا تثريب علينا إذا قضينا بأن القاصَّ قد نجح في تقديم نماذجه الأنثوية التي تعكس صورة المرأة العربية والليبية،

على حدٍّ سواء في مجتمع تحكمه تقاليد وأعراف ونظم اجتماعية لا فكاك منها، حددت دور المرأة الاجتماعي، ورسمت صورتها ووجهة نظر الآخر منها.

ومن الناحية الفنية فقد اعتمد القاصّ في بنائه قصصه على تقنية السرد الذاتي للأحداث، على الرغم من أنه يقدم لنا نماذج موضوعية أو واقعية للمرأة الليبية، فقد قام بعرض الأحداث من وجهة نظره الخاصة ومن زاويته الذاتية، فهو يخبر بالأحداث ويمنحها تأويلًا معينًا، يدفع القارئ إلى الإيمان به واعتماده الراسخ به، فقد قام القاصَّ نفسه بدور الشخصية الحكائية (الراوي) المشاهد للأحداث والمتتبع لها، ينتقل عبر الأمكنة وينقل ما يشاهده أو يسمعه من أحداث ومشاهد.

ومن ثَمَّ نراه يتكئ في تشكيل معجمه اللغوي على نمط لغوي يتسم بالوضوح والتلقائية والقصد المباشر لدلالاته، وينأى عن الغموض والإغراب اللغوي، فلم يلجأ القاصّ إلى استخدام الإيحاءات أو الرموز إلا نادرًا، ويبدو لي أنه

قصد هذا المستوى الأسلوبي المباشر قصدًا، حيث نراه يضمن أسلوبه كثيرًا من التراكيب والقوالب اللغوية الجاهزة التي استمدها من واقع مجتمعه، واعتاد العامة استخدامها في أحاديثهم اليومية، رغبةً منه في تقديم فكرته إلى المتلقي، في أيسر صورة وأبسط مفهوم يسهل عليه استيعابها والوقوف على أهدافها ومراميها، ومن ذلك استخدامه على سبيل المثال تراكيب لغوية خاصة بالمجتمع الليبي (اللهجة الليبية) والتي منها: (وين ماشي يا العرج، وغاوي فيه، وإيش دخلكم، ونبيك شريكة حياتي، ومازالت غير هذي .. وليش مادزيتي .. وإيش صار فبي الفطور) وغيرها من التعابير العامية البدوية التي درج العامة على التعامل بها فيما بينهم.

وهذا المستوى التركيبي الذي اعتمده القاصَّ يدلل على تحكم اللهجة الليبية في معجمه اللغوي، وسيطرتها على مفرداته الأسلوبية، وهذا في حد ذاته يُعَدُّ لونًا من الخصوصية الفنية والاجتماعية، حيث يحصر القاصّ نفسه داخل نطاقها،

من ثم يتجه بالخطاب إلى مجتمعه اتجاهًا مباشرًا قاصدًا بحواره فئة محددة من المتلقين أراد إيصال رسالته قبل غيرهم.

ولا تقف مظاهر الخصوصية في مجموعة المالكي القصصية عند حدود المستوى اللغوي الخاص، المُطَعَّم باللهجة الليبية وإنما يتجاوز ذلك إلى خصوصية من نوع آخر غير لغوية، تتمثل في خصوصية مكانية تجلت سماتها في ذكر القاص أسماء عدد من الأماكن والمباني والشوارع التي تتضمنها بيئته المحيطة به، فطبيعة الحال حددت قصصه (جغرافية المكان) الذي دارت فيه الأحداث، حيث نجد إشارات وإيماءات واضحة ومباشرة إلى مدينة طبرق، بما يقع فيها من أماكن ومؤسسات اجتماعية فنراه يذكر المستشفى، وشارع عمرو بن العاص، والحطية والواحة النائية بل انتقل بنا إلى العقيلة والبريقه في قصصه .. وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة، كما نلمس أنماطًا أخرى من التميز والخصوصية في اختياره لأبطال قصصه وشخصياها المحورية

حيث أطلق عليهم أسماء شاع استخدامها في المجتمع الليبي وحده منها: «نوريه، ومقبولة، وعزيزة، وربيعة ومكاسب ومكتوبة، وحواء وغالية، ورافع، وحفالش، والصادق، ومعتوق، والصابر .. وعطية وخالد وفضيل وعقيلة وإبراهيم ومنصور وسعيد وغيرها».

ولا تثريب على القاصّ في أن ينحى هذا المنحى، فهو ابن بيئته الناطق بها والمعبر عن آلامها وآمالها، فما ينبغي له أن ينسلخ عنها أو يحدد إطار قصصه المكاني بعيدًا عنها، فشخصيته الإبداعية مرآة تنعكس عليها ملامح البيئة وظروف المجتمع، فجاءت أعماله ترجمانًا صادقًا لطبيعة المكان الذي يحياه ويتعامل معه بأشيائه وموجوداته وشخوصه.

وفي المقابل لا يفوتني أن أشير إلى أن القاص قد لجأ في طيات سرده لأحداث قصصه إلى وسائل أخرى، يقنع بها المتلقي ويخاطب عقله خطابًا مباشرًا، حيث نراه قد اعتمد اطلاعه، وقراءاته المتنوعة وفي الوقت نفسه تكسو أعماله

غلالة رقيقة من المصداقية والتدليل المنطقي والإقناع التصرف (.. جفت الأقلام وطويت الصحف ..) وكذا بعض الحكم والأمثال كما قوله: (رب ملوم لا ذنب له) و(ما باليد حيلة).

ولا يعد من نافلة القول أن مجموعة المالكي القصصية بما تحمله من مضامين فكرية واجتماعية، وقضايا إنسانية عامة شغلت ومازالت، فكر الإنسان العربي، ونالت اهتمامه ومن هذه القضايا الحرية، والفقر والظلم والقهر، والمرأة والمرض والجهل .. وغيرها من قضايا الوطن (الليبي)، يبقى أنني قد كشفت النقاب عن أحد مضامين أعمال المالكي القصصية وهي (صورة المرأة الليبية في مجموعته القصصية هذه)، فإن غيرها من القضايا والأفكار مازالت تنتظر من يتأملها ويستبطن ملامح الفكر والفن فيها.

من منشورات المالكي

هذه المجموعة القصصية أراها مجموعة نادرة من نوعها فقد تميزت بتعدد مضامينها الحياتية وتناول فيها القاصّ المالكي قضايا دقيقة هامة قلما نجد كاتبًا أو باحثًا وبالأحرى أديبًا يتناولها بدقة ووضوح ولا سيما إذا كان من البيئة ذاتها فكان كمن يلتقط لنا الأحداث والمشاهد كاملة وبدقة يفسح للقارئ مجال التأمل والتخيل لهذه الأحداث والمشاهد، كما أنه يعرض القضايا والمعضلات التي يعاني منها ذوو العقول والصالحون إلى القضاء عليها بطرائق أدبية تحرك المشاعر في القلوب .. وبعرض لغوي بارع وتصوير بياني بديع .. إنه أديب جريء ممتزج ببيئته يرنو إلى الأجمل والأسمى والأرقى ..

التهنئة الصادقة لهذا الأديب الكبير.

حسين عبد الله

أديب وشاعر مصري

المجموعة القصصية الثانية

الرجل والنورس

مجموعة قصصية 2010م

حسين نصيب المالكي

أنتيبرجوس

(1)

«أنتيبرجوس»[1] بوابة التواصل نحو الشرق .. على أديمها دار صراع طويل ومدمر.

عندما احتلها الغزاة الطليان أحاطوها بسور ضخم .. ارتفاعه متران .. وأعلاه مثبت بشظايا الزجاج .. له بوابتان أطلقوا على بوابته الغربية باب درنة وعلى بوابته الشرقية باب السلوم ومنع الاحتلال الإيطالي الليبيين من دخول المدينة إلا تحت السياط أو القيام بأعمال السخرة وغيرها من الأعمال الوضيعة. أو بتصريح رسمي يسمى البرميسو.

حدثني أبي عن المدينة عندما كنت صغيرًا وقال لي:

ـ عندما أشعل الرجل الأبيض فتيل الحرب الكونية الثانية أوصدت المدينة أبوابها من جديد في وجه قاطنيها الذين فروا

(1) أنتيبرجوس: الاسم التاريخي القديم لمدينة طبرق.

من جحيم الحرب المدمرة واختفوا في المرصص والكهوف والوديان المجاورة ...

توالت الهجمات على المدينة الشهيدة. وتساقطت أطنان القنابل عليها .. حاصرتها آلاف الوحوش الحديدية تمترست بقلاعها أعتى الجيوش .. تكسرت على صخرتها ملايين السيوف والنصال .. بكى على أعتابها دهاقنة الحرب وأدهى الجنرالات بعد سنوات خرجت «أنتيبرجوس» من الحرب منهوكة القوى ممزقة الأوصال ..

بعدما ألقى المتحاربون أسلحتهم وآلياتهم وذخيرتهم على أبواب المدينة وضواحيها في كل شارع في كل وادٍ في كل سهل آليات مدمرة .. سيارات معطلة .. دبابات معطوبة وحطام طائرات. ذخيرة من مختلف الأشكال والأنواع والأحجام .. قنابل ألغام أفراد دبابات بقايا صواريخ وراجمات .. أحذية ملابس عسكرية .. أواني طعام. خوذات .. قلادات .. سلاسل .. مفاتيح .. بقايا ذكريات وأحلام لم تتحقق تحولت

كلها إلى غنائم سهلة في أيدي أناس لم يشاركوا في الحرب وإن دفعوا ثمنها باهظًا فيما بعد.

فما إن وضعت الحرب أوزارها، حتى هبط على المدينة رجال كثر أرهقتهم الفاقة وأنهكتهم الحاجة للعمل .. فتدافعوا على جمع الرابش كيفما اتفق ... يفككون القنابل والألغام لسد رمق أبنائهم .. فلا يلبثون حتى يتحولوا إلى وجبة متناثرة في العراء.

حدثني الحاج خير الله الشاعري عن تلك الفترة القاسية وقال:

ـ لقد سقط الكثير يا بني من ضحايا جمع الرابش في هذه المدينة أتذكر أربعة رجال من الزنتان تفجرت فيهم قنبلة بالقرب من المستودع الذي كنت أحرسه أتذكر يومها كيف تطايرت أشلاءهم وتناثرت من جراء الانفجار ولم اجمع من عظامهم ولحمهم إلا القليل حيث دفنته في ذلك الرمس.

لقد كان يُسْمَع كل يوم في أرجاء «أنتيبرجوس» دوي الانفجارات التي كان يذهب ضحيتها العديد من المواطنين

نشطت تجارة الخردة وتدافع الأهالي مع غيرهم على جمع الرابش (مخلفات الحرب) من نحاس وألومونيوم وحديد لقاء دراهم معدودة كان يمن بها عليهم ذلك المقاول اليهودي السمسار «بيوناحوم» الذي أصبح يمتلك أكبر مستودعات في أطراف المدينة .. ثم أخذ ينقل ما خزنه في تلك المستودعات عبر الميناء إلى البواخر التي تحمله إلى أوروبا ويبيعه هناك بملايين الدولارات.

أخبرني عمي صالح قائلًا:

ـ لقد عملت في شبابي في مستشفى «حبشي» في بداية الخمسينيات .. وقد كانت تصل إلينا أعداد كبيرة من ضحايا الرابش كل يوم .. وأتذكر جيدًا كيف جاءنا الدكتور حبشي من لبنان ولم يكن يعرف شيئًا عن الجراحة والعمليات والذي سرعان ما تفنن وتعلم في أجساد الليبيين فن إجراء العمليات الجراحية حتى أنه لم يمض عليه عدة شهور حتى أصبح طبيبًا جراحًا مشهورًا يشار إليه بالبنان.

كما كانت تعمل معنا في مستشفى حبشي العديد من الراهبات الممرضات المخلصات وعدد قليل من العاملات الليبيات وهنّ فوزية ورجعة ثم عائشة التي أصبحت زوجة لي فيما بعد.

هذه هي «أنتيبرجوس» التي احتضنت الجميع، وفتحت ذراعيها لكل من جاءها فهي آسرة محبوبة يجد فيها الراحة والهناءة كل من يستقر بها. أسر وعائلات معروفة كانت يعرف بعضها بعضًا من خلال التواصل والاحترام المتبادل والمحبة.

«أنتيبرجوس» ملحمة شجية وأغنية عذبة يحتضنها البحر من ثلاث جهات.

(2)

كانت «الحطية» تجثم فوق ربوة عالية تطل على البردي القريب من البحر والذي تحتجز مياهه الأسماك في حالتي المد والجزر وهي امتداد الأرض غرب الشاطئ.

«الحطية» كانت خارج سور المدينة وتستلقي على ضفتي شارع رئيسي تتقابل فيه الدكاكين والمحلات التي تبيع المواد الغذائية والكيروسين، أتذكر من تلك المحلات دكان العجيلي، ودكان القري، ودكان أبعيو، ومجزرة سيدي بلقاسم الوحيدة، ودكان بن طاهر، ودكان بن عيسى وغيرهم...

على ذلك الشارع الذي يفصل «الحطية» إلى قسمين كانت تسير عربات الحمير العائدة من سوق المدينة المحملة بالحطب أو براميل المياه العذبة أو تلك التي كانت تحمل الدقيق والقادمة من طاحونة بوسيف.

مازلت أتذكر عربة عمي المقرحي والتي كان يجرها حصان حيث كان يبيع الكيروسين للأهالي، وكذلك عربة بوالشقرا وعربة بوحرق وغيرهم.

حدثني أبي عن «الحطية» قائلًا:

ـ «الحطية» يا بني على أيامنا لم تكن سوى نجع بدوي، مكون من بيوت الصوف والقماش المتراصة فوق هذه الربوة،

وهي خارج سور المدينة، وبالقرب منها وادي الجدارية، ولكن بعد عشرات السنوات، تحولت الحطية إلى أكواخ من الصفيح المتلاصقة وبيوت من صناديق الذخيرة الفارغة.

«الحطية» على أيامنا كانت تقطنها عائلات فقيرة وكادحة لكن لا توصد أبواب بيوتها في وجوه بعضها البعض، عائلات تغمرها المودة والمحبة، أكواخها دائمًا مشرعة الأبواب وصنبور مياهها الوحيد الجاثم وسط الحي ملتقى العشق والعشاق ومكان لمعرفة جميع الأخبار والقصص كقصة مدينتي هذه التي لم تزل غافية على أعتاب البحر كحورية عاشقة ... «الحطية» كانت تمتاز بجمال موقعها على الشاطئ الغربي، هذا الشاطئ الجميل برماله الناعمة وزرقة مياهه ونظافته.

(3)

ها أنت تضيع أوقاتك في البحث عن الدود في الأماكن الخربة سواء في وادي الجدارية أو في النفايات الكريهة .. تقتل

نهارك باصطياد الطيور ونصب الفخاخ، وما أن تلمح أي طائر .. بوصفرة .. بوحمرة .. بوركيزة .. عضيضة. حتى تأخذ في مطاردته وملاحقته وتخاطبه وأنت على بعد بضعة أمتار منه في خبث ودهاء وتضع أصابع يدك اليمنى أسفل ذقنك الصغير وأنت تردد بصوتٍ عالٍ:

ـ يا بوصفرا غادي .. غادي أشوي شور الناطور .. تلقى دودة جاعور .. صفراء وتدُور ..

كأن الطائر يفهم لغتك. وتنطلي عليه حيلتك وخدعتك له، فيقفز ويتطاير في اتجاه الناطور حتى يقترب من الفخ المخفي تحت التراب ولا تظهر منه سوى تلك الدودة البللورية الصفراء .. يشعر بشهية نحوها .. تتبعه أنت في حذر وترمقه في فرح وما أن ينقض على تلك الدودة وهو يحاول الإمساك بها والتهامها حتى يطبق عليه الفخ ويظل ينتقض ويتقلب على التراب دون أن يستطيع الخلاص من الفخ.

تهرول أنت نحوه في فرح وانتصار وتقبض عليه بين يديك وهو يرتعش تشعر أنت بالزهو والغبطة ثم تنصب الفخ من جديد بعد أن تضع بداخله دودة بللورية صفراء أخرى، وتأخذ في البحث عن طائر آخر حتى توقعه في الشرك.

وما أن تختفي الشمس خلف الأفق البعيد، حتى تعود أدراجك إلى كوخك الصفيحي، وبين يديك سلة صغيرة مملوءة بعدد من العصافير التي اصطدتها.

وبعد انتهاء موسم الطيور، كنت تلعب مع رفاقك من صبية الحطية بالبطش والتصاوير، أو بتك العربات الصغيرة التي كنت غالبًا ما تصنع عجلاتها من علب الحليب الصغيرة، أو مغاطي القازوزة، أو تطارد «الجرابيع» في سبخة الحطية وتظل تحفر عليها، بل وتدخل يدك في تلك الحفر والسراديب، في جرأة دون خوف أو وجل في أن يلدغك ثعبان أو تلسعك عقرب، وما أن تقبض على واحد من تلك «الجرذان» حتى تشعر بالبهجة وأنت تشويه على نار الرمث الهادئة وتلتهمه في

لذة ونشوة فهو وجبة دسمة طيبة بالنسبة لك، بعد ذلك تعود أدراجك من جديد نحو الكوخ الذي ينتصب هناك فوق تلك الربوة في مدخل الحطية .. كم كانت طفولتك شقية وبائسة ولكنها كم كانت جميلة وأنت تمرح هنا وهناك دون قيود، في حرية طفولية بريئة.

لكن فجأة تغيرت حياتك وانقلبت رأسًا على عقب عندما أطل جاركم سميع عصر ذلك اليوم وأخذ يتجاذب أطراف الحديث مع والدك شرعت تنصت للحوار الدائر بينهما:

ـ ابنك يا نصيب هذا كم عمره اليوم؟

أجابه أبوك في بساطة:

ـ قد تجاوز سن التاسعة ..

قال له الحاج سميع في غضب:

ـ وكيف تدعه هكذا وقد كبر؟

ـ وماذا أفعل له؟

ـ أدخله المدرسة ...

تردد أبي قائلًا في حيرة: ولكن ...

قاطعه الحاج سميع:

ـ لا تحمل همًّا يا جاري سوف آخذه معي غدًا إلى المدرسة القرآنية ...

شعرت بالرهبة والخوف .. المدرسة القرآنية .. الفقيه والفلقة والعصا والحرمان من اللعب واصطياد الطيور والاستيقاظ مع الصباح الباكر.

ومع صباح اليوم التالي كنت ترتدي البنطلون الجديد والقميص الأبيض الذين اشتراهما لك أبوك وكذلك الحذاء، ووضعت الكراسات والأقلام في كيس الدقيق الذي جعلت منه حقيبة لك.

وانطلقت مع الحاج سميع على الأقدام من «الحطية» في اتجاه المدرسة في أقصى الشرق خلف قصر الملك .. بعد أن وصلتما أدخلك الحاج سميع فصل الصف الأول ودلف بك نحو الفقيه، الذي كان يجلس على الكرسي في مواجهة

التلاميذ، يرتدي جرده الأبيض وشنة حمراء على رأسه، والتلاميذ يجلسون أمامه في الأدراج، وهم يتمايلون ويهزون رؤوسهم وبين أيديهم الألواح الخشبية، وما أن دخلت حتى صوبوا أعينهم نحوك، شعرت بالخوف يعتريك تمنيت في تلك اللحظة لو أنك تستطيع الفرار والرجوع من حيث أتيت .. ولكن لا مفر ولا حيلة لك في ذلك.

نهض الفقيه من على كرسيه وأخذك حيث أجلسك في الدرج الأمامي إلى جوار طالب صغير، كان يحدق في لوحه وهو يتمتم بكلمات، ثم اختفى بعد ذلك الحاج سميع بعد أن أوصى بك الفقيه خيرًا .. بعد برهة أشار إليك الفقيه أن تحضر إليه ومثلت بين يديه ووقفت.

أخذ لوحًا كان إلى جواره ووضعه على منضدة أمامه غمس قلم القصبة في زجاجة الحبر المصنوع من الصوف المحروق وشرع يكتب بخط جميل بينما كنت تقف أمامه مرتبكًا في خجل وحياء وهو يرتل أمامك وأنت تردد خلفه

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين..

ثم أمرك بالعودة إلى مقعدك وتلاوة السورة عدة مرات حتى تحفظها وتسمِّعها في الغد.

صرت تقرأ بصوتٍ عالٍ ما كتب في لوحك مثل رفاقك وكنت عندما تعجز عن قراءة أي آية تطلب من رفيقك الذي يجلس إلى جوارك قراءتها لك.

ومع مضي الوقت دق جرس المدرسة معلنًا استراحة الإفطار .. وضعتم الألواح جانبًا وقفزتم تهرولون نحو المقصف ووقفتم في طابور طويل كانت تورزع عليكم شطائر الحلوى المعجونة.

ومن يومها تبدد خوفك وتلاشى ذعرك وأحببت المدرسة والاستيقاظ الباكر.

ووزعت المدرسة عليكم البدل الشتوية والأحذية الشيكية بالمجان وكذلك إفطاركم كان كالعادة: يومان شطائر حلوى

معجونة ويومان شطائر التن ويومان شطائر المربى بالإضافة إلى أكياس التمر والكاكوية التي كانت توزع عليكم كذلك بالمجان كل خميس.

ومن يومها تعلمت في تلك المدرسة كيف تفك الخط وتتعرف على طلاسم الكلمة.

كما عقدت صداقات وطيدة مع أترابك في تلك المدرسة التي أحببتها واحترمت مديرها الجليل وأساتذتها وفقهاءها وتلامذتها والمشرف أبريك الدمنهوري.

(4)

منذ ذلك اليوم أصبحت تخرج كل صباح من كوخكم في الحطية وتسير على قدميك حاملًا حقيبتك الصغيرة متجهًا نحو مدرستك القابعة هناك في أقصى شرق المدينة مع غيرك من الطلاب. كانت حركة السيارات محدودة وكذلك الأهالي القاصدون أعمالهم، كانوا يسيرون على الأقدام .. والحافلات

مفقودة إلا عند الجيش الإنجليزي في الحامية أو القاصدة قاعدة العدم ..

ما إن تجتاز سبخة الحطية حتى تصعد نحو المدينة، تخترق شارع الجيش المؤدي إلى الحامية البريطانية، مارًا بالقرب من ورشة جملي، ما أن تدخل شارع الكيت كات حتى تقابلك تلك الطاحونة الوحيدة العتيقة في المدينة، كان البدو يربطون حميرهم حولها، وقد جاءوا بالقمح والشعير لطحنه في طاحونة الحاج بوسيف والتي كان يشغلها في البداية بالنفط وكانت بدايتها بطحن القمح والشعير للأهالي، وفيما بعد صار يشغلها بالكهرباء وكذلك كان يشتري البهارات كمادة خام ويقوم بطحنها وبيعها للمواطنين.

وقد ذكر لك والدك أنه في إحدى سنوات الجفاف الماضية اشترى الحاج بوسيف الشعير من خارج البلاد وأخذ يقوم بطحنه هو وأبناؤه وبيعه للأهالي ..

ما إن اجتزت الطاحونة حتى لاحت لك البيوت العصرية الحديثة، المستلقية على جانبي الشارع والتي تقطنها العائلات

الإنجليزية، والتي يعمل قاطنوها في الحامية البريطانية الجاثمة عند نهاية شارع الجيش أمام حي شاهر روحه، أو في قاعدة العدم التي تبعد عن طبرق في الجنوب الشرقي بحوالي ثمانية وعشرين كيلو مترًا.

أما أنتم الفقراء فتأوون إلى الأحياء الفقيرة مثل الحطية وجبيلة النور وباب درنة وتقطنون أكواخ الصفيح والزنك.

ما أن تصل إلى نهاية شارع الكيت كات أو شارع طاحونة بوسيف، حتى تدخل شارع الاستقلال، وتمر من أمام الكنيسة الرابضة في وسط المدينة وتتجه نحو الشرق حتى تصل إلى مدرستك خلف قصر الملك دار السلام في أقل من ساعة، مع بداية كل يوم دراسي جديد.

لم يعد لديك أوقات للعب والراحة سوى في أيام الإجازات والعطلات الرسمية، كنت تعود كل يوم قبيل غروب الشمس، بعد انتهاء اليوم الدراسي باستثناء يوم الجمعة وتدخل شارع الاستقلال، ثم تتجه نحو عمارة الماجري

حيث تمر من أمام مصوراتي بالحولة، وهو المصور الوحيد في المدينة حينذاك، الذي جاء من مدينة درنة، وفتح معملًا للتصوير اليدوي في تلك العمارة، وكانت الصور التي يقوم بتصويرها وطبعها هي أبيض وأسود، ولا تتعدى تسعيرة الست صور أربعين قرشًا، كان استلام الصور لأهل المدينة بعد أربع وعشرين ساعة أي في اليوم التالي، أما الذين جاءوا من القرى البعيدة فكانوا يستلمون صورهم بعد ساعة واحدة من التصوير، حيث كان بو الحولة ومعه خالد بو سميحة يقوم بطبعها وتحميضها.

تتجه نحو الغرب مع ذلك الشارع عائدًا إلى كوخكم وبعد أن تنحدر تلوح لك من بعيد الحطية فوق تلك الربوة العالية.

كانت تلك المدرسة القرآنية الوحيدة في المدينة طلابها خليط من أبناء الأسر الكادحة وأبناء بعض التجار المحدودين في المدينة.

كنتم في تلك المدرسة لا تعرفون بعضكم إلا من خلال أسمائكم فقط أنتم الطلاب لا تعرفون هذا من أي قبيلة يكون ..

نظام الدراسة في المدرسة كان يبدأ من الثامنة والنصف صباحًا بحفظ وتلاوة القرآن الكريم على أيدي فقهاء من أمثال عبد الرسول المهدي، أحمد عثمان البكاي، داود مسعود، رجب الزليطني، محمد القماطي، محمد نوح، محمد شلوف.

وبعد الاستراحة كنتم تدخلون الفصول وتدرسون المعارف والعلوم على أيدي أساتذة أجلاء من أمثال فرج بدر الشاعري وسعيد الشريف وعبد ربه أمعزب وعبد الله الزوي وإدريس النويصري وعبد الحميد الجياش وصالح الجالي وغيرهم..

ومن الذين استلموا إدارة تلك المدرسة تتذكر منهم عبد الرحمن المغربي وبعده عبد الرحمن الفاسي ثم الأستاذ سعيد الشريف.

كما كنتم تدرسون في فترة ما بعد العصر حتى غروب الشمس في حفظ وتلاوة القرآن الكريم.

وتمضي بكم السنوات وكنت دائمًا تنجح في تلك المدرسة بتفوق ومن الأوائل ..

(5)

وعندما وصلت إلى الصف الخامس في المدرسة القرآنية توثقت صلتك بصديق كان معك في نفس الفصل بل في نفس الدرج أسمر البشرة نحيل العود شعره أجعد يدعى صالح كنت تذهب معه إلى بيته الذي يقع خلف فندق بلاس هوتيل في المدينة وبعد تناول الغداء كان يأتي بآلة البيانو الصغيرة يعزف عليها وتبدأون في تقليد فريد الأطرش في بعض الأغاني وبعد ذلك في المساء كنتما تذهبان معًا إلى سينما هايتي والتي كانت تقع أمام فندق الخضروات الزجاجي وقسمت إلى درجة أولى في الدور العلوي، ودرجة ثانية في الدور الأرضي، وزودت بكراسي خشبية وإضاءة ومعدات تشغيل حديثة، وتتذكر أنكما دخلتما معًا ذلك الفيلم المصري والذي كان بعنوان «حب حتى العبادة».

وكان طاقم التشغيل لدار العرض تلك يتكون من كل من خميس التاورغي وحمد الصفراني وعلي المقيرحي، أما الشباك والنظام فكان من اختصاص عطية الشاعري، آدم الحداد، مفتاح بن زابيه، عثمان لامين، أحمد مصطفى عكرّك، وكان بتلك الدار مقهى يديره عمي علي العمامي حيث يقدم السندوتشات اللذيذة والمشروبات والمرطبات والسجائر لرواد السينما.

وتتذكر من أشهر الأفلام التي شاهدتها في تلك الدار الفيلم الهندي من أجل أبنائي والذي استمر يعرض لأكثر من أسبوعين كما أعيد عرضه لعدة سنوات متتالية وكذلك الأفلام الأمريكية والمصرية والإيطالية ..

وكان لصاحب هذه الدار هايتي والتي أصبحت تسمى باسم صاحبها دار حلمي فيما بعد مقعدٌ في مقدمة الصالة حيث كنتم تشاهدونه وقبل التشغيل يجلس في المقدمة وبجانبه ميلود المشرف الذي دائمًا يحبه ويعطف عليه وبيد

كل واحد منهما كيس زريعة وبعد انتهاء الفيلم كنا نسأله عن الفيلم فيردد عبارته المشهورة:

ـ هذا فيلم جبار ..

وتتذكر أنه بعد مشاهدة فيلم «حب حتى العبادة» جلست أنت وصالح في الفصل، مع صباح اليوم التالي ودون أن يفطن لكما الفقيه رجب الزليطني وأخذتما تكتبان مشاهد الفيلم والسيناريو في كراسة صغيرة كانت معكما .. وما أن يحين موعد العطلة الصيفية حتى تمرح وتلعب وتصطاد البوري من بردي الحطية وفي بعض الأحيان تجمع النحاس والألومنيوم، وتحمله إلى المرغني في وسط المدينة حيث كان يشتريه منكم ببضعة قروش تدخل بها سينما الأهلي «الزني» أو سينما هايتي حلمي، وتشتري شطيرة التن بالهريسة وزجاجة المشروب، من عمك علي العمامي وفي الليل في أيام الدراسة كنت تكتب واجباتك وتقرأ دروسك داخل ذلك الكوخ على ضوء فنار

الكيروسين، فلم تكن الكهرباء وصلت للحطية بعد، وبدأت تكبر وتقضي أوقاتك على شاطئ كورنيش طبرق برماله الناعمة البيضاء أما شاطئ الليدو في المنارة فهو ممنوع عليكم لا يدخله إلا أبناء الإنجليز وعائلاتهم فقط ويحاط بسياج لمسافة كبيرة ويتعرض للعقوبة والسجن كل من يقترب من ذلك السياج.

وكنتم تفرحون عندما يقوم أحد الصيادين بضرب لغم في البحر «جلاطينة» حيث كنت تغطس أنت وعبد السلام عمر والصافي فتح الله وتخرجون بالكثير من الأسماك التي تأخذ في الطفو على سطح الماء.

(6)

تذكرت ذلك اليوم عندما كنت طالبًا في الصف السادس بالمدرسة القرآنية وكيف دخل عليكم مدير المدرسة في الصباح بعد الاستراحة ووقف أمامكم قائلًا:

ـ طلابي الأعزاء لن أطيل عليكم الحديث في إيجاز أقول لكم أنتم تعلمون أنه في هذه المدينة لا يوجد معهد ديني وعليه فإنكم سوف تبقون للإعادة سنة أخرى في الصف السادس بهذه المدرسة ..

واختفى بعد أن أوصد الباب خلفه وترككم في حيرة وقلق يا لها من صدمة قاسية ..

ماذا سأقول لأبي وأمي؟ هل أقول لهما إن الامتحان قد تأجل للعام الآخر إنهما قد لا يصدقان ذلك.

لم تنم في تلك الليلة وأنت تفكر فيما أخبركم به مدير المدرسة حتى اهتديت إلى فكرة ما إن أشرقت شمس الصباح حتى سارعت إلى تنفيذها .. بعد أن تغيبت عن الدراسة هرولت نحو المدينة اقتربت من مكتب الامتحانات الذي كان يقع وسط المدينة وبالقرب من مدرسة الفيحاء للبنات دخلت على المدير الذي كان يقبع خلف مكتبه ينكب على الملفات التي أمامه يتفحصها حبيبته .. رفع رأسه ونظر إليك

بعينين ضيقتين من خلف نظارته الطبية كان يبدو نحيل العود أصلع الرأس قدمت له الطلب وحدثته برغبتك غير أنه بادرك قائلًا:

ـ لقد تأخرت يا بني، تردد، لكنه أمام إصرارك وإلحاحك وقع على طلبك بالموافقة وطلب منك بعض المستندات وصورًا شخصية .. ومنذ ذلك اليوم اتصلت بأصدقائك في الحطية عبد السلام، دخيل، محمود، وطلبت منهم مفردات المنهج والمقرر والمذكرات والكتب.

فكل واحد منهم ساعدك بما يستطيع من كتب ومذكرات .. لم يبخلوا عليك بالمساعدة والشرح حتى للعمليات الحسابية الصعبة .. لم يمض شهر من المذاكرة المتواصلة في ذلك الكوخ حتى كنت قد أصبحت ملمًا بالمنهج الخاص بالصف السادس.

وفي الموعد المحدد للامتحان حيث يكرم المرء أو يهان دخلت امتحان الشهادة الابتدائية مع طلاب مدارس المدينة

وكان المقر الوحيد لأداء الامتحان في مدرسة المجد الجاثمة وسط المدينة والتي كانت في السابق مستشفى «حبشي».

استمر الامتحان ولمدة أسبوع كانت الملاحظة عليكم شديدة من قبل المعلمين وكذلك لجان المراقبة والامتحان ..

وأي إلتفاتة أو محاولة للغش يجد الطالب نفسه محرومًا من امتحان الدور الأول ومضت أسابيع على ذلك الامتحان الصعب بعد حوالي شهر أذيعت قوائم الناجحين من راديو المملكة حينذاك حيث كنت من بين الناجحين بتقدير جيد.

ويومها أحسست بالسعادة تغمرك لأن التعب والمذاكرة وسهر الليالي لم يذهب كل ذلك سُدىً.

ها أنت قد اجتزت تلك المرحلة الصعبة وقفزت إلى الإعدادية ولن تبقى سنة أخرى في الصف السادس بالمدرسة القرآنية .. تركت زملاءك في القرآنية ..

قضيت الإجازة الصيفية سعيدًا لأول مرة وبينما كنت تتجول في أحد شوارع المدينة وبالقرب من مقهى البلدية

عثرت على مكتبة عامة دخلت إليها في تردد، فوجئت بها مكتبة عامرة بالكتب والمجلات والصحف كانت تنقسم إلى قسمين قسم للأطفال وآخر للكبار.

بها العديد من القراء اطلعت على مجلات الأطفال، سمير وميكي، وقصص الأنبياء للصغار.

عرفت موظف المكتبة إنه من نفس سكان «الحطية» كنت دائمًا تلمحه في طريقه إلى المكتبة يمشي على قدميه من «الحطية» إلى المكتبة يتأبط كتابًا إنه نحيل العود متوسط الطول في مقتبل عمره يبدو وكأنه كان يعمل معلمًا عرفت فيما بعد أن اسمه أحمد حريص على الكتب يدعو الصغار إلى الهدوء والمطالعة في صمت .. ومن يومها أخذت تتردد على تلك المكتبة في فترة ما بعد العصر حيث تطَّلع على الصحف والمجلات العربية وقصص الأطفال وعندما لاحظ ذلك الموظف ترددك الدائم وشغفك بالقراءة والاطلاع طلب منك بعض البيانات والصور الشخصية وصرف لك بطاقة إعارة.

ومن يومها أصبحت تستعير الكتب الأدبية والدينية وقصص الأنبياء وألف ليلة وليلة وترجعها إلى المكتبة بعد أيام محدودة.

حيث اطلعت على قصص محمود تيمور وقصص وروايات توفيق الحكيم وعبد الحميد جودة السحار ومحمد عبد الحليم عبد الله وعلي مصطفى المصراتي وعبد الله القويري وغيرها.. هذا بالإضافة إلى دواوين الشعراء نزار قباني وإبراهيم ناجي وأحمد رفيق المهدوي وإبراهيم الأسطى عمر وأحمد الشارف وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم وتلك كانت البداية مع الكتاب ..

الرجل والنورس

تقف وحيدًا مع إطلالة الصباح كطائر مهاجر غريب، ببنطالك الأزرق وقميصك الرمادي، ولحيتك الكثة.

الأمواج تتلاطم من حولك بين مد وجزر، تتمشى على الشاطئ الطويل في تثاقل وإعياء، طيور النورس البيضاء تحلق في الجو، وهي ترتفع وتنخفض، مصدرة أصواتًا حزينة.

تحس بالإرهاق، تجلس على صخرة ناتئة في مواجهة البحر، ترنو ببصرك إلى ذلك الأفق البعيد، حيث تلتقي السماء الموج في سواد خفي، تشرد بذهنك وتتذكر كيف كنت في أوج شهرتك ومجدك.

الهاتف في منزلك كان لا يتوقف عن الرنين، ما أن ترفع السماعة حتى يهتف بك صوت أنثوي رقيق:

ـ أستاذي لقد أعجبتني قصتك الأخيرة في مجلة الشمس.

وآخر يبادرك بعد دقائق:

ـ لقد كان مقالك في مجلة الموعد جيدًا ويعالج قضية هامة.

ما أن تضع السماعة حتى يعاود الهاتف رنينه من جديد تصغي إلى المتحدث في اهتمام:

ـ أستاذ معك مجلة الشمس لا تنسَ أن ترسل لنا قصة العدد.

أجبته يومها:

ـ في الغد إن شاء الله.

أشعلت سيجارتك شرعت تنفث دخانها، تذكرت كيف دخلت عليك هي في تلك الليلة، قد سبقها عطرها الفواح، الذي كان له رائحة أخاذة، كانت ترتدي فستانها البنفسجي الجميل، شعرها ينسدل على ظهرها كأسلاك الذهب.

شرعت تتحسس شعر رأسك بأناملها الناعمة بادرتك:

ـ أنت هنا دائمًا بعيد عني.

ـ أتغارين علي حتى من الكتب؟

ـ لم لا أغار عليك ألسك زوجي ومن حقي أن يكون لي نصيب فيك.

ـ أنا لم أغمطك حقك يا عزيزتي.

ترنو ببصرك إلى أحد طيور النورس، يرصد تحركات الأسماك بدقة متناهية، ما يلبث أن ينقض على إحداها كالسهم، وما إن يرتفع بها قليلًا حتى تسقط منه في البحر، ترجع بذهنك إلى ذلك المشهد الذي لا يكاد يغيب عنك لحظة واحدة كأنه كابوس ثقيل.

تتذكر يومها كيف أطفأت محرك سيارتك أمام المدرسة الغارقة في هالة من الصمت، وقد انتصف النهار، نظرت في ساعتك كنت قد تأخرت كثيرًا عن موعدك المحدد ...

لا شك أنها قد عادت إلى البيت، مشيًا على قدميها فقد تأخرت، تقطع خطوات إلى داخل المدرسة، حتى التلاميذ جميعهم قد عادوا إلى بيوتهم.

ما أن اقتربت من باب المدير، حتى أحسست أن قدميك غير قادرتين على حملك، تسمرت في مكانك والعرق يتفصد منك!!!

ـ أأنت في حلم مزعج أم ماذا؟

كأنك غير مصدق ما يقع أمامك، ما أن لمحك المدير حتى انفض عن زوجتك التي كانت بين يديه في مشهد غرامي مؤثر، وقفز مهرولًا نحو الخارج.

في حين انتصبت هي واقفة مشدوهة كقطة مذعورة، منكوشة الشعر وشهقت دفعة واحدة:

ـ أحمد .. أحمد.

اقتربت منها وشرر الغضب يتطاير من عينيك، صفعتها على وجهها بقسوة وعنف ثم صرخت فيها:

ـ أنت طالق .. طالق.

ومن يومها جفت الأقلام، وطويت الصحف، تركت لها البيت بما فيه.

ماذا ينقصها وقد كانت ترفل في النعيم؟ ماذا ينقصها حتى ترتكب فعلتها النكراء؟ لذت هائمًا على وجهك، وفي كل مكان تحل فيه كان يصفعك الأقارب والأصدقاء بالسؤال المتكرر كلما رأوك:

ـ لماذا طلقت زوجتك يا أحمد؟

على الشاطئ كان أحمد يقتل نهاره، طائر النورس يعود يحوم من جديد، يكرر المحاولة ما يلبث أن ينقض على إحدى الأسماك يرتفع بها، وهي في منقاره، يفوز بها هذه المرة ويرحل بعيدًا.

نهضت من على الصخرة وقد أيقظك طائر النورس من سباتك العميق.

كانت الشمس قد سقطت في البحر، تزاحمت الأفكار لأول مرة في رأسك .. أحسست أنك في حاجة إلى القلم .. إلى الكتابة.

طفقت مهرولًا نحو قريتك الغافية في أحضان الجبل، لتكتب قصة قصيرة، عن طائر النورس بعد انقطاع طويل عن الكتابة ..

من مفكرة مستجد

استوت الطائرة في وضعها الطبيعي، وطفقت تسابق السحاب عائدة بك إلى مدينتك، الموشومة في القلب وفي الذاكرة .. التقطت لفافة تبغ بين أناملك، وشرعت تأخذ أنفاسًا عميقة، كان الجالس إلى جوارك يغفو بين الحين والآخر، يبدو كأنه من عدة أيام لم يغمض له جفن، من شاربه الهلالي، ووجهه الأصفر يبدو وكأنه تركي.

فتحت حقيبتك الصغيرة، أخرجت منها كتابًا من الشعر، تصفحته برزت تلك القصاصة الصغيرة، المزينة الحواشي، قرأت فقرة منها.

«وحيدة أنا تعذبني الوحدة، وتؤرقني مرارة الانتظار، في غيابك أعد الأيام والأسابيع، وأحلم بك كل ليلة، فأنا أنتظرك، على أحر من الجمر»، تتلاشى سطور الرسالة من أمامك، تشرد بذهنك مع تلك الأيام، وكأنها شريط مرئي،

يمر أمامك للتو، تتذكر كيف ودعت والدك يومها، وكيف ربت على كتفك قائلًا لك:

ـ كل شيء يهون من أجل الوطن كن رجلًا يا بني.

مازلت تتذكر تلك الساحة المعبدة، التي كنتم تتدافعون نحوها، مع مطلع كل فجر، ببزاتكم العسكرية في لمح البصر، سرعان ما تصطفون في صفوف متراصة متناسقة، مازلت تتذكر يوم أن اصطففت في آخر السرية، والارتباك يبدو عليك، وشهر ديسمبر برياحه المسمومة القارسة وأمطاره الغزيرة يصفعك على وجهك، القشعريرة تسري إلى جسدك النحيل، طفقت تحملق في سرب الحمام، الذي يحلق أمامك فوق ذلك المبنى العتيق، ذكرك يومها بغادتك السمراء الغافية في أحضان تلك الواحة النائية، سرعان ما دب الحنين إلى قلبك، وهزك الشوق نحوها، يا لك من عاطفي ملول، يد فولاذية يومها دفعتك في عنف، أيقظك من شرودك أنه ضابط مديد القامة، مفتول الذراعين، على كتفه

تلمع نجمة يتيمة، يدفعك بيده القاسية، وشرر الغضب يتطاير من عينيه، قائلًا:

ـ تقف في استراحة والفصيل في استعداد أيها الغبي.

أحسست بالخطأ الجسيم الذي وقعت فيه بغبائك، اختلست النظر إلى الأجساد المنتصبة إلى جوارك وأمامك في استعداد، وتخيم عليها هالة الصمت، أصلحت من وضعك، هتفت بينك وبين نفسك:

ـ يالي من غبي حقًا.

الطائرة مازالت تشق عباب الجو، تمخر السحاب، المضيفة الشقراء الجميلة، ذات الشعر اللامع القصير تقترب منك وتسبقها رائحة عطر أخاذة سؤال يتكرر في لطف وأدب ومن بين شفتيها كحبتي الكرز.

ـ ماذا تشرب؟

أشرت لها إلى الشاي، فمدت لك بكوب منه، جارك التركي يصحو من غفوته، يرتشف كوب العصير دفعة واحدة، ثم يستسلم للنوم من جديد.

تعود تتذكر من جديد ذلك الضابط الزنجي المديد القامة، وكيف عاد إليك يومها .. بعد برهة يتهادى في مشيته بزهو، أمام السرية يرنو إلى الوجوه الحليقة، والأحذية اللامعة بوجهه البرونزي المتجهم، وخطواته الرزينة، ها هو يقترب منك، يقف أمامك في استخفاف وازدراء، يبادرك قائلًا:

ـ عندك مكتب بعد الدوام.

كنت مستجدًا يومها لم تكن تدري ماذا يعني المكتب؟ هل هو عقوبة؟ أم إجازة طارئة أم خروج أم ماذا؟ الطائرة مازالت تعانق السماء، الركاب بين متحدث إلى من هو بجواره، أو متصفح لمجلة أو صحيفة، أو مستغرق في نوم عميق.

يومها ما أن انتهت الحصة الأخيرة حتى كنت تقف أمام مكتب الضابط آمر السرية والاضطراب يبدو على وجهك المرهق، ومعك طالب آخر أقدم منك يحمل ثلاثة أشرطة على كتفه.

أدى التحية أدخلك عليه لم يلتفت إليك إلا بعد دقائق من اللامبالاة وعدم الاهتمام.

ـ أنت الرقم (.....).

ـ نعم يا سيدي.

ـ أتدري ماذا فعلت اليوم؟

ـ .....

ـ لقد كنت في استراحة والسرية في حالة استعداد.

سجل لك يومها العقوبة، وأمرك بالانصراف في غضب، انصرفت مهرولًا دون أن تنبس بكلمة واحدة .. أزيز الطائرة أخذ يعلو، شرعت تتمايل يمينًا ويسارًا، المضيفة الحسناء تقترب منك تأمرك بربط حزام الأمان تبرز أمامك شهادة التخرج من تلك الكلية العسكرية، تضعها في الحقيبة تشعر بالسعادة تغمرك والارتياح يثلج صدرك، بينما الطائرة توشك على الهبوط.

الطابور

بعد رحلة التعب المضني، ها أنت قد استطعت أن تشق طريقك وسط الجموع المتزاحمة، على الشباك الحديدي الصغير الموصد، تتطاير الشتائم من الأفواه تتدافع الأجساد، موظف الجوازات يخرج من مكتبه، وهو يهدد ويتوعد، بصوتٍ عالٍ غاضب، يصيح في الجموع المحتشدة:

ـ لن أبدأ في إتمام الإجراءات حتى تنتظموا في صف واحد.

قابلوه في البداية بصلف وتحد، ثم انتظموا في طابور طويل، عيونهم مصوبة على الشباك الذي ما لبث أن أطل منه الموظف، وفي بطء وتثاقل شرع في قبول الجوازات، مسافر كان يقف خلفك، قتله التململ والوقوف، شعر بنفاد صبره انفجر يصيح بصوتٍ مرتفع:

ـ لنا أكثر من ساعة ونحن ننتظر، ما هذه الفوضى واللامبالاة؟ سرعان ما وصلت كلماته للضابط الجالس على

الكرسي الخشبي، الذي كان يراقب حركة العمل، وسط حرارة شمس يوليو الحارقة، التي تنتصب في كبد السماء.

استدعاه إليه، لا شك أن هذا الضابط قد أحس ما أنت فيه من استعجال، فها هو يطلبك، لعله يريد أن ينهي لك الإجراءات قبل الآخرين.

تفحصه الضابط بنظرة فاحصة، أرجعه إليه بعد برهة ونهره في غلظة وقسوة قائلًا:

ـ اغرب عن وجهي واذهب وقف في مؤخرة الطابور، حتى تتأدب مرة أخرى.

جرجر المسافر قدميه في دهشة وخيبة نحو مؤخرة الطابور.

قبل سفرك إلى هذا البلد النفطي، طبعت يومها قبلة على جبين أمك، التي ودعتك وهي تدعو لك، وفتاتك الجميلة، ذات الوجه المدور، هي الأخرى اغرورقت عيناها بالمدموع، عند وداعك بادرتها قائلًا:

ـ لا تحزني يا فتاتي فسأعود إليك مع الربيع القادم ومعي فستان عرسك ..

وودعت يومها قريتك التي تفوح من أزقتها الضيقة رائحة الفقر والجوع، ورياح القبلي، ارتحلت نحو الصحراء البعيدة، حيث الشمس اللافحة والفقراء دائمًا يرتحلون.

وبعد أيام وأسابيع من البحث الدائم والترحال، وقد أدمت الأرصفة قدميك، عثرت على عمل هناك في مصنع للطوب الأسمنتي.

ومع كل غروب شمس، كنت تأوي إلى تلك الغرفة الضيقة المسقوفة بالصفيح والألواح الخشبية، التي مضغها السوس .. وأنت متهالك ومتعب.

وتظل تحلم بتلك الغافية في قريتك النائية، تحلم بفتاتك الجميلة والبيت الوارف الظلال، وأنت تغفو على زندها، وتحكي لها عن ليالي الغربة والترحال والعرق الذي كان يغسل جسدك ..

ـ يا للوعة اغترابي عن عينيك يا جميلتي ..

أيقظك من شرودك موظف الجوازات ذو السحنة الترابية، وهو يهتف بك:

ـ أنت هيه أين جواز سفرك؟

سرعان ما مددت به إليه، التقطه منك ثم اختفى وبعد برهة عاد وهو يهتف باسمك، هززت رأسك مجيبًا ومددت له يدك فإذا به يفاجئك قائلًا:

ـ هذه وثيقة سفر قد انتهى مفعولها.

بادرته والدم يغلي في شرايينك:

ـ ليس لدي غيرها..

رد عليك ببساطة متسائلًا:

ـ ماذا أفعل لك؟

آه أيها الفظ الغليظ القلب لو تدري أن هذه الوثيقة كم دفعت عليها من مئات الجنيهات ...

توسلت إليه أن يختم لك التأشيرة، ويدعك تعبر عائدًا إلى أهلك المنتظرين أوبتك على أحر من الجمر، خلف تلك التلال البعيدة غير أنه قال لك من جديد:

ـ كيف أدعك وأنت ليس معك جواز سفر، أأنت أحمق أم ماذا؟

هممت أن تقول له أن يدعك تدخل إلى بلادك، ولن تخرج منها مرة أخرى، لكنه لم يدع لك فرصة للحديث وزجرك قائلًا:

ـ هيا دع المكان لمن هو بعدك ولا تصدع رأسي.

انسحبت تجرجر قدميك من الطابور الآدمي الطويل، دارت بك الدنيا وغابت المرئيات من أمام عينيك، صدمة قاسية لم تكن في الحسبان، أخذت تلعن حظك السيئ، ويومك التعس، غمغمت قائلًا:

ـ يالحزني وتعاستي وغيابي الطويل عنكم، ما أشد اشتياقي إليكم لكن ما باليد حيلة!

الصـراخ

أجمل لحظات الكتابة عندي هي عندما يتأخر الليل، ويخيم الصمت والسكون على كوخنا الصغير الهادئ.

غير أنه في الليالي الماضية جرى ما لم يكن في الحسبان.

عندما أطلت علينا المولودة البكر التي سررنا بها كثيرًا أنا وأمها حتى أننا أطلقنا عليها اسم «فرح».

لا أكاد أخلو إلى غرفتي في هذا الكوخ، وأمسك القلم بين أناملي في محاولة للكتابة، حتى تطلق الصغيرة صراخًا حادًا، يكاد أن يمزق طبلتي أذني، تهرول إليها أمها، وهي تحتضنها في لهفة، لكنها لا تتوقف عن الصراخ، أتوقف عن الكتابة وأسرع إليها في قلق وحيرة، قائلًا:

ـ ماذا بها الصغيرة؟

تجيبني أمها في ارتباك:

ـ لا أدري .. إنها ترفض الرضاعة ولا تتوقف عن الصراخ.

سهرنا بجوارها تلك الليلة، ونحن نقلبها يمنة ويسرة، ولكن دون جدوى، وما أن أطل الصباح حتى كنا نحملها إلى أقرب طبيب أطفال، في تلك العيادة أخذ الطبيب يتفحصها.. وضع سماعته الطبية على صدرها، تحسس بطنها، بعد لحظات بادرنا قائلًا:

ـ إنها ليس بها مرض.. ارتفعت الشمس في كبد السماء، وعدنا بها إلى الكوخ من جديد، وما أن أطل المساء حتى عزمت على الكتابة، وخطرت لي فكرة قصة جديدة، وما أن انساب القلم على الورق، حتى أخذ صراخ الطفلة في الارتفاع من جديد، وتوقفت عن الكتابة واقتربت من الطفلة التي كانت ترفض الرضاعة، ولا تتوقف عن الصراخ، هذه المرة.

أخذتها هي وأمها إلى العجوز الظريفة درافل التي استقبلتنا عند الباب، وأخذت منا الطفلة دخلنا خلفها تلك الحجرة، وضعت إصبعها بقسوة، داخل فمها الصغير، حتى تقيأت الطفلة ما في جوفها، نظرت إليها أمها وهي تصرخ مأخوذة:

ـ ماذا بها؟

بادرتها قائلة:

ـ هذه الطفلة «محلوقة» بها حلق .. وما أن وصلنا إلى الكوخ حتى كانت الطفلة قد رضعت من ثدي أمها، ثم استسلمت إلى سبات عميق، عندها انخرطت في كتابة تلك القصة وانساب القلم بين أناملي، وتزاحمت الأفكار على رأسي تتداعى على الأوراق البيضاء.

اليربوع

الخيمة تتلاعب بها الريح، وبداخلها طفلة جائعة تنوح، الأم حائرة لا تدري ما تفعل .. الأب عندما اشتد غضبه، وأظلمت الدنيا أمام عينيه، قفز مهرولًا نحو الخلاء، حيث تراءت له الخيام في أشواط بداخلها كتل بشرية بين الحياة والموت، خيام لا تعد ولا تحصى، مزروعة وسط صحراء قاحلة وكثبان رملية.. عند نهاية كل شوط من الخيام تنتصب المشانق، تبعث الذعر والهلع في القلوب، خيام محاصرة بالأسلاك الشائكة، والجند المدججون بالسلاح المنتشرون هنا وهناك، ما أن ابتعد عن شوط من الخيام حتى تسمر مكانه، من هول ما رأى رجل طويل كالنخلة السامقة، بلون الليل، كان بين يديه سوط يلهب به ظهر عجوز، يصرخ في وجهها وهي تتأوه وتتألم:

ـ هل تتأخرين مرة أخرى أيتها الشمطاء؟

كان يجلدها بالسوط في عنف وقسوة، واصل سيره، بعد خطوات اقترب من خيمة مهترئة، أمامها يقف رجل مسن، وهو يبكي حظه السيئ ويومه التعس، وهو يردد .. (وين الغالي يا دار ...).

تركه ومضى في سبيله وتمتم قائلًا:

ـ أمثالك كثيرون بداخل هذا المعتقل، من الذين أضاعوا عقولهم وفقدوا صوابهم.

واصل سيره، التقى بشيخ مسن كانت تبدو عليه كآبة وسيما الأسى بادره قائلًا:

ـ هل أنت مريض أيها الشيخ؟

أجابه في حزن وكآبة:

ـ ليس بي مرض أيها الرجل ثم أخذ يردد (ما بي مرض غير دار العقيله وحبس القبيلة، وبعد الجبا من بلاد الوصيله). اتجه نحو الأسلاك الشائكة والجوع يمزقه، ما أن لمح جرذًا يمرق من أمامه، حتى قفز يهرول خلفه وهو يهتف به:

ـ أين تهرب مني أيها الجربوع؟

سرعان ما تحفز الجرذ ودفن نفسه في حفرته، واختفى تحت الأرض في سرداب طويل.

عثر الرجل على قطعة حديد، شرع يحفر بها ويزيل التراب بيديه .. عندما أحس بالتعب والإرهاق، انتصب واقفًا، وهو يمسح العرق الهابط على عينيه، والتفت يمنة ويسرة وهو يغمغم:

ـ الكلاب صادروا كل شيء لم يدعوا لنا ما نقتات به ..

انخرط في مواصلة الحفر، وإزالة الأتربة، وما أن وصل إلى نهاية السرداب، حتى كان اليربوع ينزوي مرتعشًا، قبض عليه بيديه كانت بطنه بيضاء وعيناه يقظتين، وشارباه يرتعشان ابتسم الرجل وهو يتمتم:

ـ يا لك من صيد ثمين ووجبة دسمة. ما أن هم أن يستدير به إلى الخلف، حتى أحسَ بعقب بندقية يسدد إلى كتفه،

بقسوة التفت إليه كان أحد الحراس «المصَوَّع» بادره الحارس في غضب:

ـ تحاول الهرب أيها الحقير أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدي.

ضربه بأخمس البندقية على كتفه بقسوة وعنف، حتى سقط من بين يديه ذلك اليربوع، الذي ما أن وطأت أقدامه الأرض حتى أطلق ساقيه للريح، واختفى هناك، خلف الأسلاك الشائكة، صرخ في وجهه الحارس من جديد:

ـ لابد من معاقبتك أيها القذر. جرجره أمامه نحو «كابو» المعتقل بينما الرجل يردد أبيات ذلك الشيخ العجوز الذي شنقت ابنتاه أمامه في ذلك المعتقل «ما بي مرض غير دار العقيله وحبس القبيلة وبعد الجبا من بلاد الوصيله».

المواطن والمسؤول

في الصباح هرول المواطن (س) نحو مبنى الإسكان العتيق، وظل ينتظر المدير لعدة ساعات طويلة، لكنه لم يأت إلا بعد الثانية عشرة ظهرًا، ببدلته الأنيقة وسائقه الخاص، الذي كان يتبعه كظله يحمل عنه حقيبة سوداء ومفاتيح السيارة الفخمة، يبدو المدير متورم العينين، تتدلى بطنه أمامه وهو يمشي الهويني، توقف السائق عند مدخل الباب، لم يدع أحدًا يدخل على مديره، حتى أذن له بعد مضي أكثر من ساعة دخل عليه المواطن (س) وأفضى إليه بحاجته الماسة لشقة صغيرة تؤوي أسرته الفقيرة التي تقطن في ذلك الكوخ المتهالك في اللامبالاة وببساطة أجابه المدير دون أن ينظر إليه فقد كان يطَّلِع على بعض الرسائل في بريده اليومي ويوقع عليها.

ـ هل تراني الآن أوزع الشقق والبيوت السكنية.

ـ لا، ولكن ...

قاطعه المدير:

ـ إذن هيا اغرب عن وجهي ولا تضيع وقتي.

عند ذلك استشاط المواطن (س) غضبًا وبدلًا من أن ينسحب ويمضي، تقدم نحوه في عصبية، ودون أن يدري ما يفعل وجد نفسه يحمل المنضدة التي أمامه، ويقلبها رأسًا على عقب، حيث تناثرت تلك الأوراق والملفات وتطايرت في أرجاء المكتب، وقد سقط المدير من على كرسيه في رعب وفزع، وهو يصرخ ويستغيث طالبًا النجدة والإغاثة ..

المجموعة القصصية الثالثة

الطيار البرونزي

مجموعة قصصية 2017م

حسين نصيب المالكي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

في البداية أقول أن القصة قصيرة جدًا هي جنس أدبي حديث، وهي فن أشد صعوبة من القصة القصيرة، ولا يبدع فيه إلا الأكفاء من الكتاب والأدباء القادرين على اقتناص اللحظات العابرة، قبل انزلاقها على سطح الذاكرة..

وتمتاز القصة القصيرة جدًا بقصر الحجم، والإيحاء المكثف، والنزعة القصصية الموجزة، والمقصدية الرمزية المباشرة وغير المباشرة، فضلًا عن خاصية الاقتضاب والتلميح، والتجريب، والنفس الجملي القصير الموسوم بالحركية، وتأزم الموقف، بالإضافة إلى سمات الحذف والاختزال والإضمار.

وقد برزت القصة القصيرة جدًا، في السنوات الأخيرة تحديدًا منذ بداية الألفية الثالثة من القرن العشرين، فصدرت مجموعات قصصية قصيرة جدًا، حيث لاقت أصداء واسعة،

وباتت من صلب اهتمام الأدباء والقراء على حد سواء، فخصصت لها مهرجانات قصصية، ورابطة تعمل على جمع كتاب القصة القصيرة جدًا، في أنحاء العالم العربي.

ولعل أول ما ظهر فن القصة القصيرة جدًا في أمريكا اللاتينية، مع بدايات القرن العشرين، ثم انتقل بعد لك إلى أوروبا الغربية، ثم في العقود الأخيرة من القرن العشرين في بلاد الرافدين العراق والشام، وخاصةً سوريا وفلسطين عند زكريا تامر، والقاص الشاعر فاروق مواسي، ومحمود شقير، وفي المغرب العربي عند محمد زفزاف، وحسن علي برطال في السعودية، وفي ليبيا عند جمعة الفاخري، والقاص حسين نصيب المالكي، صاحب الإصدارات العديدة وغيرها في القصة القصيرة، من مقبولة، إلى وتجسد الحلم، إلى الرجل والنورس.

ها هو القاص يدخل عالم القصة القصيرة جدًا، بمجموعته هذه (الطيار البرونزي) الصادرة حديثًا في هذا الكتاب.

عندما نبدأ بقراءة هذه السلسلة من القصص القصيرة جدًا، لا نستطيع التوقف، حتى نهايتها، وتتحفز حواسنا للاستمتاع بالمزيد، فهي تتلون بالفلكلور الشعبي الليبي، فبعض المفردات هي من صميم اللهجة المحلية، تطلعنا على تراث هذا البلد الجميل، ففي هذه النصوص تكمن الحكمة واللغة السلسة والجميلة بآنٍ معًا، وتنتهي بقفلات مدهشة، تتصف بمقومات القصة القصيرة جدًا .. هذا الكتاب كأنه البحر نغوص به، لنحظى بالدرر.

فالقاص المالكي أودع فيه خلاصة تجربته، ومخزونه الداخلي مما استقاه من الواقع.

وليس بمفاجئ الموضوع، فكاتبنا له باع طويل في العمل القصصي، وتاريخ كبير في إصدارات متعددة، لاقت نجاحًا ورواجًا في حياته الأدبية العامرة..

رأيت الإبداع الحقيقي، فكان السهل الممتنع سمة هذه النصوص..

كما نجد في هذه المجموعة بدايات لكتابة القصة الومضة.

نتمنى التوفيق والنجاح الدائم لكاتبنا المبدع القاص/ حسين نصيب المالكي.

د/ سوزان إسماعيل
سوريه ـ اللاذقية

عودة

عينت في العاصمة رئيسًا لتحرير صحيفة الثورة ..

بعد الثورة بأسبوع، كتبت افتتاحية العدد كانت بعنوان: (أيها العسكريون عودوا إلى ثكناتكم)...

ومع الصباح صدر العدد الأول.

وحذفت الافتتاحية.

فقدمت استقالتي، وعدت إلى مدينتي.

طبرق في 2015/4/20م

الكلب

مهداة إلى عارف عبيد

انعطف بنا سائق الحافلة الوحيدة بالمدينة ناحية اليمين، وأوقفها فجأة .. قفز من مقعده التفت إلينا نحن الركاب معربدًا:

ـ لن تتحرك الحافلة من هنا حتى تخرجوا الكلب .. الركاب أخذتهم الدهشة والذهول وردد أحدهم:

ـ أي كلب يا رجل؟

قال في إصرار وتحدٍّ:

ـ لقد سمعته ينبح هنا داخل الحافلة..

تحرك السائق البرونزي يفتش الحافلة.. مشى نحوي كنت أجلس في الخلف .. اقترب مني عيناه يتطاير منهما شرر الغضب .. تسمر عند قدمي .. الأعين الرصاصية تحدق في..

كانت أمي إلى جواري فأنا طفلها الوحيد المدلل بين أربعة بنات..

بادرني السائق قائلًا:

ـ ماذا في داخل الكرتون؟..

بادرته:

ـ لا شيء.. لا شيء.. ومسكت الكرتون في حذر وخوف غير أن الجرو فجأة نبح وفضحني.

أجابته أمي قائلة:

ـ إنه جرو صغير طفلي يحبه..

صرخ السائق فيها:

ـ هيا انزلي أنت وطفلك والجرو.

.. استعطفته أمي أن يدعنا نصل إلى كوخنا، لعدم وجود تاكسيات في المدينة، لكنه كان فظًّا غليظ القلب، لم تأخذه رأفة بأمي، وأصر على طردنا من الحافلة، لم نجد بُدًّا من الترجل، والمشي على الأقدام من أمام معهد النفط حتى الجبيلة الشرقية، أنا أحمل الجرو الصغير في الكرتون، وأمي تسير إلى جواري بردائها البني ..

طبرق في 2016/2/20م

العبد وسيده

دخل العبد وسيده العاصمة، ذات يوم فوجداها يخيم عليها الفراغ والكآبة .. تساءلا في دهشة: ماذا هناك؟ فأجابهما أحد المواطنين قائلًا:

ـ لقد مات الرئيس.. وغدًا على الجميع الحضور إلى الميدان عند الظهر؛ لأنه سيتم اختيار رئيس جديد لهذه الدولة، عن طريق حمامة سيطلق سراحها، ومن تهبط على كتفه سوف يكون محظوظًا، ويصبح رئيسًا للبلاد.

قال العبد لسيده:

ـ ماذا لو حطت عليك الحمامة وصرت رئيسًا للبلاد ماذا ستفعل؟

أجابه:

ـ سوف أجعل الشعب يعيش في بحبوحة ورغد من العيش وسعادة..

ثم التفت السيد إلى عبده:

ـ وأنت ماذا ستفعل لو صرت رئيسًا؟

أجابه:

ـ أنا لحقني ظلم شديد وفقر مدقع، وسأزرع العدالة في هذا الشعب، من لديه عمارتان أخذ منه عمارة واحدة، ومن عنده سيارتان أبقي له على سيارة واحدة، ومن عنده هكتارات من الأراضي، سوف أبقي له على هكتار واحد وهكذا..

وفي اليوم التالي حضر العبد وسيده إلى الميدان قبل الظهر، وبعد دقائق أطلقت الحمامة وسط الحشد الكبير من البشر، ارتفعت الحمامة قليلًا ثم انخفضت، ونزلت على كتف العبد..

الإسكندرية في 2016/2/8م

الغراب الأبيض

كان ثمة غربان تعيش في وادٍ سعيدة بحياتها، فجأة برز بينهم غراب أبيض، أصابهم الذهول وأخذتهم الحيرة، فأسرعوا إلى زعيم الغربان، واشتكوا إليه من وجود الغراب الأبيض، فطمأنهم قائلًا لهم:

ـ دعوه يعيش بينكم.

تركوه في اليوم الأول ظهرت له ريشة سوداء، وفي اليوم الثاني ريشتان، وفي اليوم الثالث ثلاث ريشات سود .. ثم بعد أسبوع مر عليهم زعيم الغربان، وسألهم عن الغراب الأبيض.

أجابوه:

ـ كل يوم أسود من يوم ..

طبرق في 2016/1/27م

الكسوف

أقبلوا من كل حدب وصوب، عرب وأجانب، لرصد هذه الظاهرة الكونية.

بينما الشمس كانت تختفي رويدًا رويدًا عند الظهيرة في بئر الغبي الصحراوية..

الجميع يتطلع إلى أعلى ويحدق في الشمس الهاربة..

وقفت وزيرة بجانب وزير في الدولة تتساءل:

ـ سيادة الوزير ما هو مصير حكومتنا؟

أجابها:

ـ مثل تلك الشمس التي ترحل في خجل وحياء.

طبرق في 2015/3/29م

البئر

أحس بالتعب والإجهاد، بعد حفر البئر.

شرع يمسح عرقه المتفصد على جبينه..

اقتربت هي منه في غنج ودلال..

مدت له بطاسة الشاي الأخضر، وقطعة خبز التنور قائلة:

ـ احفر وإلا تعبت..

التفت إليها:

ـ حفرت واجد خلاص.

طبرق في 2015/9/22م

الحاج

رتل طويل من السيارات أمامه..

يهدئ من سرعة سيارته..

اقترب من البوابة..

العسكري الواقف ببزته الخضراء الباهتة..

وبندقية الكلاشن في يده..

بادره:

ـ تفضل يا حاج..

عندها فقط عرف إنه قد كبر.

طبرق في 2015/10/16م

خمس دقائق

كان يجلس عصرًا في مقهى الصفاء ...

مستغرقًا في كتابة الفصل الأخير من روايته: (المؤامرة).

على الطاولة أمامه جهاز اللابتوب..

وزجاجة ماء وكوب المكياطة..

وفجأة وقف عند رأسه أربعة ملثمين ببنادق الكلاشنكوف.

بادره أحدهم:

ـ هيا انهض تفضل معنا خمس دقائق..

طبرق في 2014/7/24م

غزالة

كانت صديقتي غزالة جميلة، وأغار عليها .. تستحم بنافورة المياه، .. تتراقص المياه حول جسدها .. تلعق نهديها عيون المارة، لكن اليوم انعطفت عليها بسيارتي الصغيرة، فلم أجد لها أثرًا، كنت دائمًا أحييها في الصباح عندما أذهب إلى الجامعة أو أعود منها مع الظهيرة، مكانها اليوم موحش يمتلئ بالمياه الراكدة، حتى الزهور في ثناياها ذبلت، سألت عنها في دهشة وحزن قالوا لي خطفتها الأشباح عند الفجر.

طبرق في 2016/1/15م

الصورة

كان يجلس وحيدًا في المكتب.

تزين كتفه ثلاثة أشرطة.

أمامه على الحائط صورة زعيم دولته بنياشينه وأوسمته.

حدق في الصورة التي ظللها الغبار، غمغم بينه وبين نفسه:

ـ إنها تحتاج إلى تنظيف.

نهض من على كرسيه، وقف مد يده للصورة.

فجأة سقطت من يده تهشم الزجاج.

تمزقت الصورة.

في اليوم الثاني قبض عليه، وأودع السجن بتهمة تمزيق صورة القائد.

طبرق في 2010/10/22م

الصقر

في نهاية فصل الخريف، كان يجوب بسيارته الطاوية بحر الرمال، إلى جواره ابنه الصغير.

السيارة ترتفع وتنخفض بهما، بحثا عن صقر ضاع، قال له ابنه:

ـ يا أبي لنسترح في أي مكان هنا حتى الصباح.

أجابه:

ـ يجب أن نصل جماعتنا الليلة.

ما لبثت أن سقطت بهما السيارة في حفرة عميقة، لفظ محركها أنفاسه.

الابن يحدق في والده، ويحركه يمنة ويسارًا لكن لا حراك ولا نبض فيه.

طبرق في 2014/12/22م

الملك فِي المدينة

أطل الملك من شرفة قصره بدار السلام العامرة ...

كانت أسوار القصر مزدانة بالأضواء...

بينما المدينة تغرق في الظلام الدامس...

استدعى الملك رئيس ديوانه، وسأله عن الظلام الحالك في المدينة.

أجابه رئيس الديوان:

ـ الكهرباء مقطوعة عن المدينة يا مولاي..

بادره الملك في غضب:

ـ أصدر تعليماتك لرئيس الكهرباء بإضاءة المدينة بالكامل الليلة قبل أن تشرق الشمس.

طبرق في 2014/7/17م

البكرة

أقبلت على الحاكم العسكري...

وبعد طول انتظار وتفتيش، أدخلني عليه مدير مكتبه..

نظر إليَّ بعدم اهتمام وبلا مبالاة: ـ ماذا تريد؟

قلتُ: ـ أريد ناقتي البكرة التي سرقها جنودك.

بادرني غاضبًا: ـ احترم نفسك جنودي لا يسرقون النوق.

ـ هيا معي وسترى بأم عينيك.

نهض الحاكم من على مكتبه، خرج معي إلى الخلاء، اقتربت من ناقتي التي كانت داخل صندوق السيارة، فتحت بابها الخلفي، فككت قيدها فجأة اجتازت السياج نحو البكرة ابنتها، وهي تتمسح بها مغتبطة بلقائها، عندها خيم على الحاكم العسكري الذهول والتفت إلى جنوده قائلًا:

ـ أخرجوا له الناقة وابنتها.

طبرق في 2014/4/25م

إيقاعات متناغمة

يشرد بك الذهن بعيدًا إلى تلك السنوات القاسية من عمرك، التي أنهكتها ليالِ الصقيع والعمل المضني، حتى غدوت كالعجوز، وأنت لم تصل بعد إلى العقد الرابع، ما أن يحل فصل الشتاء وتنهال الأمطار بغزارة، ضاربة بسياطها سقف الكوخ وجنباته، حتى يصرخ أطفالك في ذعر وفزع:

ـ المطر المطر يا أبي ستثقب السقف وتغرقنا.

ـ لا لا تخافوا إنها لحظات وسوف تتوقف.

الحطية في 2014/12/1م

نصف قرش أحمر

كنتُ في طفولتي الشقية البائسة، عندما أحلم بالأسماك في منامي، لابد أن أعثر في صباح اليوم التالي على نصف قرش أحمر، مُلْقَى على الأرض، عليه صورة الملك، كان يساوي الكثير بالنسبة لي في بداية الستينيات.

طبرق في 2012/2/7م

عند أسوار بنينة[1]

في مدخل مدينتي كنتُ ألمحه كل صباح مبكرًا، يقف عند مفترق الشوارع الأربعة، يلف ويدور كالنحلة ببزته الناصعة البياض، وأنا أقود سيارتي الشفر البيضاء، يوقف السيارات ينفخ في صفارته، يشير للمارة بعبور الرصيف، يلوح بذراعه، ثم يعطي إشارة الانطلاق للسيارات التي أسرعت تتحرر من برهة الوقوف، كان في ربيع العمر، إنه صقر يتدفق حيوية ونشاط، يعرفه الجميع في مدينتي، آلة مرورية رهيبة، يعلو ويهبط ويصفر ويشير بالتوقف والانطلاق، يعطي الحق لسيارات الاتجاه المقابل، وفجأة اختفى منذ عدة أيام لم أعد ألمحه، دفعني فضولي لسؤال زميله عنه:

ـ أين رجل المرور صقر؟

أجابني زميله:

---

(1) **بنينة**: مدينة تقع جنوب شرق مدينة بنغازي يقع فيها مطار بنغازي الدولي.

ـ لقد انضم صقر لجيش الكرامة، وسقط شهيدًا عند أسوار بنينة يوم أمس ..

طبرق في 2015/5/15م

النداهة

كان وحيدًا في الصحراء في القيلولة، يسمعها تناديه، يتلفت يمينًا ويسارًا، لا يجد شيئًا.

يمد خطواته على الرمال، يصل صوتها من جديد إليه، هل هو في حلم أم ماذا؟ ولكن أين هي؟ فجأة يلمحها من بعيد بفستانها الوردي، وشعرها المنساب على كتفها كشلال العتمة يجري نحوها، كلما اقترب منها تبتعد عنه، ولا يعثر لها على أثر..

طبرق في 2014/2/7م

رفيق الدرب

هو يحبها ويحنو عليها .. جميلة ووجهها كالبدر وعيناها كحبتي زيتون..

يدعها تشارك في المسابقات والمعارض..

هي مهووسة بالأدب والثقافة..

وهو لم يكمل تعليمه الإعدادي..

يشتغل في الأعمال الحرة..

يفرح لفوزها الأدبي يشاركها سعادتها وغبطتها..

يسر بها كثيرًا عندما تصدر كتابًا، أو تنشر مقالة جديدة..

لم تمض بضعة أشهر على زواجهما حتى جعلت منه قارئًا للأدب.

طبرق في 2015/11/4م

السيولة

كان يقف في طابور طويل أمام شباك الصراف، وبعد ساعات وصل أمام شباك المصرف، قدم الصك للصراف، نظر إلى الكمبيوتر الذي أمامه، ثم رفع رأسه وأرجع الصك إليه قائلًا:

ـ في حسابك خمسة آلاف دينار ولكن ليست لدينا سيولة.

طبرق في 2016/2/24م

الوقت

داهمه الوقت؛ أسرع في خطواته، عند وصوله الربوة، تكسرت آماله وأحلامه.

طبرق في 2016/1/17م

هو وهي

كان هو شاعر وهي أيضًا شاعرة، أحبته وأحبها تزوجا عن حب، كانت تقرأ عليه قصائدها الجميلة، وتحكي له عن إعجاب القراء والنقاد بقصيدتها الجديدة، لكنه كان يبتسم في وجهها ويقول لها:

ـ هذا الإعجاب الكبير لأنك امرأة فقط وليس للقصيدة..

شيئًا فشيئًا بدا يغار منها.

وفي يومٍ قال لها:

ـ اختاري الشعر أو حياتك الزوجية أنا ليس لدي امرأة تخرج للمهرجانات والأمسيات الشعرية أنا أطلبك امرأة بيت وفراش فقط..

عندها اختارت الشعر وافترقا.

طبرق في 2015/3/30م

الطابور

كانت طوابير البشر عديدة في مدينته على المخابز، والغاز، والمصارف، وشركات ليبيانا والمدار، نهض مع الصباح الباكر، وخرج إلى الشارع، أشار إلى سائق تاكسي، توقف بالقرب منه، فتح الباب وجلس إلى جواره، سأله السائق:

ـ إلى أين؟

ـ إلى أول طابور يصادفك توقف عنده.

طبرق في 2014/11/22م

مراهقة ولكن...

كانت تقول له: ـ أنا أحبك.

وكان يقول لها: ـ أنا أموت فيك عشقًا.

كل ذلك من خلال النقال أو الفيس فقط.

وعندما التقى بها وجهًا لوجه، هرب منها..

طبرق في 2014/8/2م

الطيَّار البرونزي

يحلق بطائرته العجوز عاليًا في الجو، يشارك في تأبين زميله الذي استشهد هناك، يشاهد الحشد يحيونه، طويل القامة بلون الليل، أنيق ببزته العسكرية، اتصلت هي به قبل أن يمتطي طائرته: ـ أنت وين توا؟

أجابها: ـ أنا في القاعدة..

ـ لا تنسَ أن تحضر لي حليبًا وحفاظات للطفل.

لم تمض دقائق حتى كان يحلق عاليًا، ارتفع بالطائرة ثم انخفض بها، غير أنها هذه المرة لم ترتفع، أحس بضيق في صدره فقد الاتصال بالأرض، حاول أن يفك حزامه أن يقفز منها لكن دون جدوى، اصطدمت الطائرة بسطح الدور الأخير لإحدى العمارات السكنية، تعالت ألسنة اللهب والنيران في الجو، انفجار مدوي تاثرت أشلاء الطائرة في سبخة الحطية، كما تناثر معها جسده.

طبرق في 2015/10/20م

الكرسي

كان يمتلك أرصدة ضخمة في بنوك العالم..

يبعثر أمواله يمينًا وشمالًا، على سهراته الماجنة مع بنات الهوى.

لم يعرق يومًا في جمعها تلك الأموال..

يهمس بينه وبين نفسه:

ـ أنا لا ينقصني سوى الكرسي؟

وفي إصرار يهمس لنفسه:

ـ لابد أن أبذل قصارى جهدي في ظل هذه الفوضى.

وأرشح نفسي رئيسًا للدولة، حتى ولو صرفت كل أرصدتي وأموالي..

الكرسي أهم شيء في حياتي..

طبرق في 2013/5/1م

تعليمات ملك

كان ثمة ملك يحب لعب الورق دائمًا وخاصةً الرومينو..

استدعى إلى قصره ثلاثة من أصدقائه المهووسين بلعب الورق مثله..

كما استدعى وزير ماليته وعندما مثل الجميع أمامه التفت إلى وزير المالية قائلًا له:

ـ بناءً على تعليماتي يفرغ هؤلاء للهيئة الاستشارية الخاصة بي. وتصرف مرتباتهم منذ بداية الشهر..

أجاب وزير المالية:

ـ سمعًا وطاعة مولاي الملك تعليماتك تنفذ حرفيًا.

وعندما يحل المساء يهتف الملك بحاجبه: أوصد أبواب القصر وقل لهم الملك في اجتماع مع الهيئة الاستشارية.

ويجلس الثلاثة مع الملك يلعبون الرومينو حتى ساعة متأخرة من الليل.

طبرق في 2014/8/4م

الرئيس

قال له الرجل الأشقر ذو النظارات السميكة:

ـ نحن سنطرح اسمك رئيسًا للدولة لكن عليك أن تبقى خارج القاعة ولا تدخل معنا..

هز العجوز رأسه بالموافقة، تجاوز العقد السابع من عمره، بدا يعدل من وضع رباط عنقه، جلس في بهو الفندق على الكرسي الوثير، يتخيل نفسه رئيسًا للبلاد، هي أمنيته الوحيدة التي ظل يحلم بها منذ سنوات. كيف يلقي خطابه الأول، وعن ماذا يتحدث للشعب..

الوقت يمضي.. المنفضة تمتلئ أمامه بأعقاب السجائر.. أفرغ عدة زجاجات مياه معدنية في جوفه. أخرج هاتفه النقال رن على رئيس الجلسة الرجل الأشقر أكثر من مرة.. لم يرد عليه، رن على رفيقه هاتفه مقفل، يشعر بالضيق والقلق ومرارة الانتظار، خمس ساعات تمر ولم يخرج عليه أحد بدا يشعر كأنه في زنزانة ضيقة..

تهلل وجهه غبطة وابتهاجًا عندما فتح باب القاعة، قفز من على كرسيه أسرع وقابل زميله متسائلًا:

ـ أبشر يا صالح أبشر؟

أجابه:

ـ للأسف لم يطرح اسمك للرئاسة لا من قريب ولا من بعيد.

طبرق في 2015/10/14م

المزعج

ابتسمت له؛ احتكر ازعاجها، وظل يطاردها من مكان لآخر، حتى إنه أصبح كظلها.

طبرق في 2016/2/1م

الوفاء

فقدته صغيرة؛ فلم تعرف أحدًا بعده.

طبرق في 2016/2/1م

تمشيط

بينما كنتُ واقفًا في تلك البوابة الغربية ببزتي الباهتة، ممسكًا بالكلاشن في يدي، أراقب حركة مرور السيارات، الصيف قائظ العرق.. يتفصد مني.. اقتربت من البوابة شاحنة جديدة بالمقطورة، يطلقون عليها اسم الخفاش، هدأ سائقها من سرعتها عند مروره من البوابة، اقترب مني ابتسم في وجهي، عرفته أنه الجندي منصور، زميلي في الجيش منذ سنوات انعطف بالشاحنة ذات اليمين، ليتيح المرور لغيره وترجل من الشاحنة وجاءني أخذته بالأحضان بادرته:

ـ أين أنت يا رجل...

أجابني:

ـ وداعًا للعسكرية أنا حاليًا صاحب هذا الخفاش.

في دشهة وذهول:

ـ من أين حصلت عليه؟

أجابني:

ـ بعد التحرير التحقت بجبهة سرت، بينما كنتُ مع الثوار نمشط عثرت على هذه الشاحنة الجديدة بالجرار امتطيتها، وأصبحت ملكي، إنها غنيمة حرب.

الثائر

صنعنا ثورة؛ غاب القانون.

طبرق في 2015/5/15م

المعلمة

عادت متأخرة من العمل؛ تطاير شرر الغضب من عينيه، وظل يصرخ فيها كيف تأخرت لهذا الوقت؟ أجابته:

ـ عندي حصة سادسة اليوم في المدرسة.

طبرق في 2015/5/15م

القبلى

أطاعوا أباهم يوم ريحٍ صرصرٍ، ركبوا المركب وتحدوا العواصف؛ لكن الأمواج قلبت مركبهم وغرقوا جميعًا.

طبرق في 2012/2/25م

حوار قصير

قالت له:

ـ ما هو عيبك؟

أجابها:

ـ خجلي المطلق.

طبرق في 2016/10/20م

أم

سُرَّت بابنها كثيرًا عندما زوجته؛ وبعد أشهر طردته هو وزوجته.

طبرق في 2016/1/17م

غباء

قتل جواده، هزمت قواته، ركب رأسه وخرج للشمس قائلًا:

ـ أنا معي الملايين.

وعندما خرج للشارع لم يجد لهم أثرًا.

طبرق في 2017/8/15م

ياما ضاع

وجدتها تصرخ بحدة وحرقة تساءلت مأخوذًا:

ـ ماذا هناك؟

بادرتني وهي تبكي:

ـ خروف العيد الذي ليس لنا غيره قد مات..

بادرتها قائلًا:

ـ ياما ضاع في الدنيا.

طبرق في 2013/9/18م

لم يكن في الحسبان

كان يصول ويجول، الحرس من حوله النسر والنياشين تزين كتفه، كل شيء تحت إمرته، لا تصل مكتبه إلا بعد مرورك على العديد من البوابات والحرس، والوجوه المكشرة عن أنيابها كالذئاب، وتفتيشك بالكامل، والويل لك إذا كان ثمة إبرة في جيبك رغد ورفاهية وحراس طوال غلاظ قساة وشقراوات جميلات من تونس ولبنان واستراحة تكتظ بهن الواحدة تلو الأخرى...

وفجأة وجد نفسه بين جدران زنزانة وباب حديدي، ليس لديه ما يغطي جسده إلا سروال عربي وسوريه، عند كل مساء تفتح الزنزانة ويجلد على قدميه، حتى تورمتا، لم يعد قادرًا على المشي، هكذا بين عشية وضحاها سؤال ظل يدور ماذا هناك؟

وجواب يأتي:

ـ لقد انتفضت الجماهير على الحاكم..

طبرق في 2015/5/7م

الخنجر

هدأ من سرعة سيارته المرسيدس السوداء، كان قادمًا من الغرب، تجاوز العقد السادس من عمره في طريقه إلى طبرق كانوا ملثمين يتوقفون عند بوابة سرت، أوقف السيارة عند البوابة سأله أحدهم:

ـ إلى أين أنت مسافر؟

ـ إلى بنغازي.

طلب منه الهوية والرخصة وكتيب السيارة أعطاهم له.

بادره آخر:

ـ افتح شنطة السيارة الخلفية..

آماله عريضة للسكنى بتلك المدينة الغافية في حضن البحر في أقصى الشرق.

قطع عليه شروده وتخيلاته صوت ذلك الملثم، الذي يمسك ببندقية الكلاشن الذي كان يفتش شنطة السيارة...

ـ هيا ترجل تكذب علينا ما هذه؟

ـ إنها بطاقة القضاء وأنا قاضي في زليتن..

يبادره الملثم في غضب وسخرية وبيده الخنجر:

ـ إذن أنت طاغوت .. لن تغادر هذه البوابة وفيك عرق ينبض بالحياة..

طبرق في 2013/5/1م

وحشية

كانوا يهاجمون كلبه بسيوفهم وسكاكينهم، بينما كلبه ينبح على هذا وذاك، ويجري نحو هذا وذاك، حتى أردوه قتيلًا يغرق في دمائه يشاهد كل هذا الفتى، وهو لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى الصراخ والنحيب.

الطاووس

كنت واقفًا مع عدة من شخصيات مسئولة في الدولة جاءت لتقدم التعزية لضابط كبير في وفاة أمه.. كان يرافقهم صديق قديم، أعرفه منذ أن كان موظفًا صغيرًا كادحًا، يتحدثون عن خططهم المستقبلية وطموحاتهم وأحلامهم الوردية التفت نحوي وهو يرفع رأسه عاليًا كالطاووس:

ـ لقد أنهيت لك الموضوع..

ـ أي موضوع يقصد لست أدري؟ تلافيت التردد والسؤال وجاملته بسرعة:

ـ بارك الله فيك وشكرًا جزيلًا لك.

ـ وبعد تعزية الضابط وحضور وجبة الغداء وشرب الشاي الأخضر خرجنا من بيت العزاء وودعنا الضابط التفت إلى صديقي وبادرته متسائلًا:

ـ أي موضوع الذي انهيته لي؟

أجابني بهزة من رأسه ببساطة:

ـ ليس هناك موضوع ولا شيء ولكنني وجدت نفسي كالأطرش في الزفة قلت لماذا لا أكون مسئولًا كبيرًا مثلهم على حسابك.

طبرق في 2013/3/3م

الرحيل

مع إطلالة الصباح، كان النجع يحزم أمتعته، وبيوته على ظهور الإبل.

تاركًا السفح القفر، والبئر التي نضب ماؤها.

شرعت الكلاب تنبح، نادبة حظها السيئ ويومها التعس.

وحيدة في المراح تطلق النباح.

طبرق في 2013/8/1م

الفقيه

كنا ثلاثة وأربعين شابًا من البلاد ربط بيننا حبنا لعبد الناصر قرأنا الميثاق وبيان 30 مارس وقصة فلسفة الثورة اجتمعنا عدة مرات على البحر في شحات وبطة عندما حصلنا على الثانوية اجتمعنا كالعادة وقررنا أن يدخل الفقيه وصاحبه الزاوي الكلية العسكرية حتى يستلم هو وزارة الدفاع وصاحبه الداخلية وبالفعل دخلا الكلية العسكرية، ولم نعد نلتقي إلا نادرًا بعد أن وزعوا الوزارات بيننا على الورق وبعد التخرج فوجئنا بالشرطة العسكرية تقبض علينا نحن واحدًا واحدًا، وتزج بنا في زنزانات منفردة، دون التحقيق معنا لعشرات السنوات بتهمة انتمائنا للحزب الشيوعي بأمر من الفقيه وصاحبه بينما الفقيه وصاحبه ينعمان بالبلاد.

طبرق في 2011/10/20م

الكابوس

يطارده كابوس الكلية العسكرية باستمرار.. البوق المزعج يصرخ.. الطلاب يهرولون نحو الساحة.. بينما هو ما يزال يفتش عن فردة حذائه العسكري التي أضاعها، آمر الفصيل البرونزي اللون يصيح معربدًا:

ـ تحرك خارج مستجد تحرك خارج.

يتفصد عرقًا وقد اختفت فردة حذائه العسكري الويل له يهب مذعورًا من نومه على صراخ زوجته:

ـ صبي يا راجل الغاز كمل..

يفتح عينيه يجد نفسه على سريره يشعر بالطمأنينة والارتياح.

طبرق في 2014/9/1م

تعليمات أمنية

تقدمت الزوجة نحو البوابة، مع زوجها في طريق عودتهما إلى ليبيا من مصر، وكان ثمة قرار بمنع حاملي جواز السفر المصري من الدخول إلى ليبيا خاطبها رجل الأمن:

ـ أنت مصرية..

أجابت:

ـ نعم.

قال لها:

ـ لدينا أمر حكومي بمنعك من السفر إلى ليبيا.

أجابت:

ـ لكن أولادي وأحفادي هناك، وأنا متزوجة من هذا الشيخ، منذ الستينيات وسقطت مغشي عليها.

سيرة إبداعية

ـ حسين نصيب المالكي قاص وصحفي وباحث في المأثور الشعبي.

ـ مواليد 1953م.

ـ عمل رئيسًا لتحرير صحيفة البطنان منذ 1986م وأكثر من عشرين سنة.

ـ يعمل حاليًا رئيسًا لتحرير صحيفة صدى البرلمان الصادرة عن مجلس النواب.

ـ كان عضو بأسرة تحرير صحيفة المختار الصادرة عن هيئة ودعم وتشجيع الصحافة.

ـ كان عضو بتحرير مجلة الفصول الأربعة.

صدرت له في القصة القصيرة:

1- مقبولة مجموعة قصص قصيرة صدرت سنة 1979م عن شركة النشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس، وطبعت عدة طبعات.

2- وتجسد الحلم قصص فصيرة صدرت سنة 1984م عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع طرابلس.

3- الرجل والنورس مجموعة قصص قصيرة صدرت سنة 2010م عن مجلس الثقافة العام.

4- من الذاكرة ـ كتاب في السيرة الذاتية ـ صدر سنة 2015م عن مجلة المستقبل.

5- كتاب القصة القصيرة في طبرق ـ صدر سنة 2009م عن مؤسسة نجلاء محرم الثقافية.

6- قراءات في القصة القصيرة ـ صدر سنة 2006م عن مجلة المؤتمر.

7- صور من الجهاد الليبي في طبرق ـ صدر سنة 1995م عن مطابع بنغازي، وصدر في عدة طبعات.

8- الحطية مجموعة قصص قصيرة ـ صدرت عن دار البيان سنة 2019م.

التكريمات:

1- كُرِّمَ من قِبَلِ صحيفة أخبار طبرق سنة 2008م.

2- كُرِّمَ من قِبَلِ دار جين المصرية للنشر والتوزيع سنة 2015م.

3- كُرِّمَ من قِبَلِ بيت البطنان الثقافي سنة 2006م.

أُجريت الدراسات والأبحاث على إبداعه القصصي في جامعة عمر المختار ـ طبرق.

ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية:

وكتب عن إنتاجه القصصي العديد من النقاد والأدباء من بينهم: د/ طه وادي ـ د/ عمر بن قينه ـ د/ عباس عبد الجواد ـ د/ البهلول سالم ـ والأستاذ/ محسن يوسف وغيرهم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	7
مقبولة	11
مكتوب	15
برقية	20
العاشق الحائر	27
وجبة إفطار	32
الإحباط	38
الجمل	44
حكاية الجندي حفالش	48
الضحية	51
الحاج عطية	57
رحيل	60
مكتوبة	63
الصحوة	69
لحظة غضب	76

الموضوع **الصفحة**

حكاية من العقيلة 78
المهمة الخطرة 82
العوسجة 87
الوجه الآخر 90
قصة من البريقة 93
المرأة في قصص مقبولة 95
من منشورات المالكي 109
الرجل والنورس 111
أنتيبرجوس 113
الرجل والنورس 141
من مفكرة مستجد 147
الطابور 152
الصراخ 157
اليربوع 161
المواطن والمسؤول 165

الموضوع الصفحة

الطيار البرونزي 167
المقدمة........ 169
عودة........ 173
الكلب «مهداة إلى عارف عبيد»........ 174
العبد وسيده 176
الغراب الأبيض........ 178
الكسوف........ 179
البئر........ 180
الحاج 181
خمس دقائق 182
غزالة 183
الصقر 185
الملك في المدينة........ 186
البكرة 187
إيقاعات متناغمة........ 188
نصف قرش أحمر........ 188

الموضوع الصفحة

عند أسوار بنينة.. 189
النداهة 190
رفيق الدرب 191
السيولة.. 192
الوقت 192
هو وهي.. 193
الطابور 194
مراهقة ولكن.. 194
الطيَّار البرونزي.. 195
الكرسي 196
تعليمات ملك 197
الرئيس 198
المزعج.. 199
الوفاء.. 199
تمشيط 200
الثائر.. 201

الموضوع	الصفحة

المعلمة 201
القبلى 202
حوار قصير 202
أم 202
غباء 203
ياما ضاع 203
لم يكن في الحسبان 204
الخنجر 205
وحشية 206
الطاووس 207
الرحيل 208
الفقيه 209
الكابوس 210
تعليمات أمنية 211
سيرة إبداعية 212
الفهرس 215